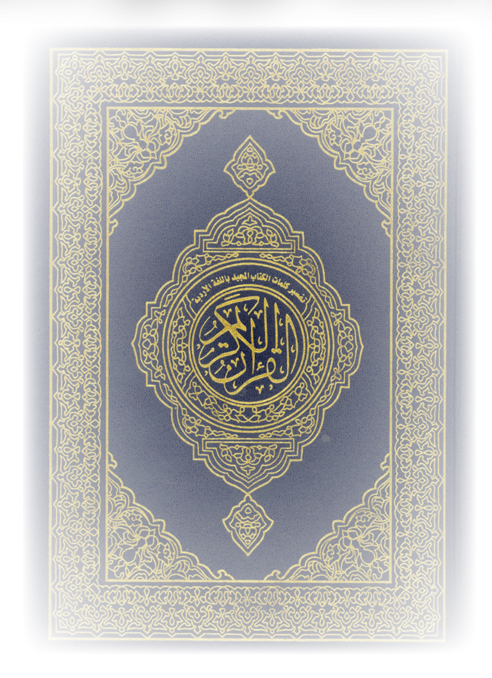
علم مقاصد السور



إعداد

د. محمد بن عبد اللّه الربيعة

الأستاذ المساعد بقسم القرآن وعلومة

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ / ٢٠١١م

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الربيعة ، محمد عبدالله عبد الرحمن
علم مقاصد السور . / محمد عبدالله عبدالرحمن الربيعة . -
الرياض ، ١٤٣٢هـ
٦٤ ص ، ١٧ × ٢٤سم
ردمك: ٣ - ٧٦٧٠ - ٠٠ -٦٠٣ - ٩٧٨
١-القرآن - مباحث عامة ٢- القرآن - السور والأيات
أ. العنوان
ديوي ٢٢٩ ١٤٣٢/٥٥٦٠

رقم الإيداع ١٤٣٢/٥٥٦٠
ردمك :٣- ٧٦٧٠-٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ / ٢٠١١م


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين أنزل كتابه المبين ليكون هدى للعالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد الأمين، وعلى آله وأصحابه المكرمين، وسلف الأمة وعلمائها الربانيين، ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن لكلِّ كلام ذي قّدْرٍ غاية يساق البيانُ فيه إليها، ومقصوداً أعظم يُؤمّ إليه، وأحقُّ الكلام بذلك كلام الله تعالى المحكم في كتابه المبين، وإذا ما كان للقرآن المجيد مقصودٌ أعظم تتناسل المعاني منه فأي كتاب يتحقق فيه ذلك أعظم من كتاب الله، فإنَّ الله - عز وجل - من فيض رحمته وحكمته قد جعل كتابة العظيم سورًا تتفاوت في عدد آياتها وطولها، وجعل لكلّ سورة من سوره مقصداً ترجع إليه آياتها، وذلك وجه من وجوه إحكام القرآن كما قال تعالى في مستفتح سورة هود: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[هود: ١].

وإذا ظهر ذلك كان من أعظم ما يبعث على فهم كتاب الله تعالى ومعرفة دقائق ألفاظه ومعانيه، والوصول إلى كمال هداياته وعظاته، معرفة مقاصد القرآن بجملته، ومقاصد السور والآيات بتفصيلها، وذلك أن المقاصد تهدي إلى مراد المتكلم في كلامه، ومن هنا فيمكن لنا القول بأن علم المقاصد من أجل العلوم المعينة على فهم كتاب الله تعالى، بل هي العمدة في فهمه، قال الشاطبي رحمه الله: "قال تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾[النساء: ٨٢] التدبر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد"[(١)].

وعليه فيمكن لنا أن نعتمد في تفسير كتاب الله تعالى على هذا العلم العظيم، فيكون منهجاً من مناهج التفسير، ومنطلقاً أساساً لفهم كلام الله تعالى.

(١) ((الموافقات)) (٣/٣٨٣).

وقد يسر الله لي دراسة هذا العلم وتطبيقه من خلال الدروس العلمية، فرأيت في هذا المنهج قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد، وظهر لي من خلال ربط آيات السورة بمقصدها معاني عظيمة ودقيقة لا تتحقق إلا بمراعاة ذلك. أسأل الله تعالى أن يحقق لي تمام ما وفقني له.

وقد عزمت على كتابة بحث فيه لإبرازه كمنهج لتفسير كتاب الله تعالى، ويكون تأصيلاً وتأكيداً لهذا العلم، فكان هذا البحث المبارك الذي عرضته في مقدمة وسبعة مباحث وخاتمة:

المقدمة:
المبحث الأول: التعريف بعلم مقاصد السور.
المبحث الثاني: أهمية علم مقاصد السور.
المبحث الثالث: تأصيل علم مقاصد السور وأدلته.
المبحث الرابع: عناية العلماء بالمقاصد واعتبارها.
المبحث الخامس: عناية المفسرين بمقاصد السور ومناهجهم فيها.
المبحث السادس: طرق كشف مقاصد السور.
الخاتمة: وفيها خلاصة البحث.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً وأن ينفعني به أولاً، وأن يحقق فيه الأمل بالنفع العام والقبول في الأرض. كما أسأله تعالى الصواب والتوفيق في القول العمل، والعفو والتجاوز عن الخطأ والخلل، هو حسبي ونعم الوكيل، عليه توكلت وإليه أنيب.

كتبه
د. محمد بن عبدالله الربيعة
جامعة القصيم – كلية الشريعة وأصول الدين،
قسم القرآن وعلومه

المبحث الأول

التعريف بعلم مقاصد السور

المطلب الأول

التعريف

المقصد لغة: يرجع إلى مادة (ق ص د) وهي تدور على معنى التوجه والنهوض نحو الشيء.

•قال ابن جني: أصل مادة " ق ص د " ومواقعها في كلام العرب: التوجه والنهوض نحو الشيء، هذا أصله في الحقيقة".[1].

فالمقصد هو العمدة الذي يتجه إليه الكلام ويرجع إليه.

وعليه فيمكن أن نحدد مقصد السورة بأنه (مغزى السورة الذي ترجع إليه معاني السورة ومضمونها).

وإذا تبين هذا فيمكن أن نعرف علم مقاصد السور بأنه (علم يعرف به مغزى السورة الجامع لمعانيها ومضمونها).

وقد عرف البقاعي هذا العلم فقال: " هو علم يعرف منه مقاصد السور، وموضوعه: آيات السور، كل سورة على حيالها "[2].

(١) ((لسان العرب)) (٣/ ٣٥٣)

(٢) ((نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)) (١/ ١٥٥) .

المطلب الثاني

ضوابط المقصد والفرق بينه وبين الموضوع

قد أجد في بعض التفاسير وغيرها إطلاق لفظ مقاصد السورة على موضوعاتها، كما يفعله الفيروز أبادي في (بصائر ذوي التمييز) وابن عاشور في (التحرير والتنوير) وغيرهما، وإن كان هناك ارتباطٌ بينهما.

وبالتأمل نجد فرقاً أساسياً بين الموضوعات والمقاصد، فالموضوعات هي: مجمل ما اشتملت عليه السورة من المعاني العامة. والمقاصد هي: الغايات التي تهدف إليها السورة وترجع إليها جميع موضوعاتها ومعانيها.

وعليه فيمكن نحدد ضوابط لمقصد السورة تميزها عن الموضوعات وهي:

١. أنه جامع مطالب الخطاب الذي يمثل الأمور الكلية للسورة.
٢. أنه الغاية والمغزى الذي تدور حوله السورة. فقد يكون تربية أو إعداداً لأمر حضاً أو تحذيراً أو ترغيباً أو كشفاً أو معالجة.
٣. أنه معنى خفي يحتاج إلى تدبر الكلام واستيفائه كله. ووجه كونه معنىً خفياً أنه يمثل الروح التي تسري في كيان السورة، فتربط بين أجزائها، وتجعل كل جزء فيها آخذاً بالآخر، في سبيل تحقيق المقصد الأعظم.

ويوضح الفراهي ضابط المقصد الذي يسميه عمود الكلام بأنه: " جماع مطالب الخطاب، فإليه مجرى الكلام، وهو المحصول والمقصود منه، فليس من أجزائه الترتيبية، ولكنه يسري فيه كالروح، وربما يحسن إخفاؤه، فلا يطلع عليه إلا بعد استيفاء الكلام والتدبر فيه"[١].

(١) ((دلائل النظام)) ص١٦.

ونضرب لذلك مثلاً:

سورة البقرة نجد أنها اشتملت موضوعاتها على أصول الشريعة وكلياتها، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " وقد ذكرت في مواضع ما اشتملت عليه سورة البقرة من تقرير أصول العلم و قواعد الدين "[١].

وبالتأمل الثاقب للسورة كلها ومقاطعها نجدها تعرضت لغير الأحكام التشريعية ومن ذلك القسم الأول من السورة حيث عرض فيه قصة آدم وقصة بني إسرائيل وقصة إبراهيم وبناء البيت، وقصة تحويل القبلة، وقصة طالوت، وآية الكرسي وما تبعها من قصص، وهذا يمثل أكثر من نصف السورة. وبالتأمل فإنه يمكن أن نربط بين هذه الموضعات من الأحكام والقصص بالغرض الذي يجمعها كلها وهو ما يمكن أن نعبر عنه بأنه ((إعداد الأمة لتلقي الشريعة وامتثالها وتبليغها)). فالسورة تركز على تربية الأمة وإعدادها لتلقي شريعة الله تعالى وامتثالها، ولذلك جاءت قصة بني إسرائيل وفيها قصة البقرة تحذير للمؤمنين من مشابهتهم، وإشعار بنقل الخلافة من بني إسرائيل إلى هذه الأمة وإليها أشارت قصة إبراهيم وقصة تحويل القبلة.

فتأمل كيف كان المقصد جامعاً للموضوعات.

مرادفات مصطلح مقاصد السور:

مصطلح مقاصد السور له مرادفات في كلام المفسرين وغيرهم، منها:

سياق السورة، وغرض السورة، والوحدة الموضوعية، الوحدة السياقية للسورة، وموضوع السورة العام، وعمدة السورة، وهدف السورة، ومحور السورة، ومضمون السورة، ومدار السورة، وفلك السورة، وجو السورة، وشخصية السورة، وروح السورة.

وكلها تصب في معنى واحد هو أن تكون السورة ترجع إلى معنى واحد يجمعها.

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) (٤١/١٤)..

المبحث الثاني

أهمية علم مقاصد السور ومنزلته

تتبين أهمية علم مقاصد السور بأمور:

أولاً: أن علم مقاصد السور راجع إلى تحقيق المقصد من إنزال هذا القرآن كله وهو التدبر والهداية، كما قال تعالى ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[ص : ٢٩] فاللّه تعالى أمرنا بالتدبر، لمعرفة مراده تعالى من كلامه والعمل به، وليس المقصود بالتدبر هو النظر في عباراته وألفاظه دون النظر لمقاصده ومراد اللّه تعالى فيه، وما تهدي إليه سوره وآياته من الهدايات والدلالات التي بها يتحقق الفهم والعمل، ومن هنا تتبين أهمية علم المقاصد، إذ إنه يركز على تحقيق مراد اللّه تعالى في كلامه، بالنظر إلى مجمل السورة وبيان مجمع معانيها.

قال الشاطبي: " فإن كل عاقل يعلم أن مقصود الخطاب ليس هو التفقه في العبارة، وإنما التفقه في المعبّر عنه والمراد به "[١] .

ثانياً: أن مقصد السورة هو أصل معانيها التي ترجع إليه، فهو أصل في فهم معاني كلام اللّه تعالى، ولهذا فإن معاني السورة لا تتحقق إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر واستخراج مقصدها[٢] .

ثالثاً: أن هذا الاتجاه في التفسير هو من تفسير القرآن بالقرآن، فهو تفسير القرآن بالنظر والتأمل والتدقيق فيما توحي إليه السورة من تحقيق مراد اللّه تعالى في كلامه، بالنظر في افتتاح السورة واختتامها، وسابقها ولاحقها، وموضوعاتها، وألفاظها.

(١) ((الموافقات)) (٣/٤٠٩)..

(٢) انظر ((الموافقات)) (٣/٤١٥).

رابعاً: أنه يعين على فهم كتاب الله تعالى فهماً صحيحاً، ويوصل إلى معرفة الحق في تفسير كلام الله تعالى، والتبحر في دلالاته وهداياته، ودقائق معانيه.

قال البقاعي في كلامه على علم المقاصد: " وغايته: معرفة الحق من تفسير كل آية من تلك السور، ومنفعته: التبحر في علم التفسير "(١) .

خامساً: أن معرفة مقصد السورة الذي تنتظم به معانيها وآياتها سبيل للسلامة من الخطأ وتفسير كلام الله على غير مراده.

سادساً: أن تفسير القرآن باعتبار مقاصد السور يجعل كلام الله مؤتلفاً منتظماً على نحو كمال نظمه ومعناه، وتكون السورة معه كالبناء المرصوص وكالعقد المتناسق (٢) .

سابعا: بمعرفة مقصد السورة تنتظم آيات السورة وتظهر المناسبات بين آياتها فتكون لحمة واحدة يجمعها معنى واحد(٣) .

ثامنا: أن مقاصد السور من أعظم ما يتحقق بها ربط الآيات بالواقع، وذلك أن المتدبر في مقصد السورة يعايش السورة معايشة تبعثه على التفاعل والعمل والتطبيق، فالقارئ لسورة الإخلاص مثلاً حين يدرك ماتهدف إليه السورة من تحقيق الإخلاص والتوحيد يستحضر هذا المقصد في آياتها وكلماتها فيبعثه ذلك على تحقيق المقصود.

تاسعا: أن هذا العلم يبعث على رسوخ الإيمان، وزيادة نور القلب، وقرار العين بما يتضح من روائع هذا العلم العظيم، ويحصل معه من اللذة والمتعة والسرور ما لا يحصل في غيره، ذلك أنه علم يبحث في الحكم والمقاصد.

---

(١) ((مصاعد النظر)) (١/١٥٥).

(٢) انظر ((النبأ العظيم)) (١٥٥). ((الأساس)) (١/٢٧).

(٣) انظر ((مصاعد النظر)) (ص١٤٩).

المبحث الثالث

تأصيل علم مقاصد السور، وأدلته من الكتاب والسنة وأقوال السلف والعلماء

العلم بمقاصد السور لم ينص عليه الأوائل، وإنما اعتبره الصحابة والتابعون بالاستقراء والممارسة في تفسيرهم، ولم يُنص على هذا العلم بهذا الاسم إلا عند المتأخرين، وذلك شأن جميع العلوم، فإن العلوم كانت ممارسة عند السلف، ولكن التسمية جاءت متأخرة، فعلم النحو مثلاً كان ممارسا ولم يكون موجودا، وعلم البلاغة كان ممارساً ولم يكن موجوداً، وهكذا في علوم القرآن في أنحاء شتى، ومصطلح الحديث وعلوم أخرى[1] .

وبالتأمل في الكتاب والسنة وتفاسير السلف والآثار الواردة عنهم نجد أصل هذا العلم ظاهراً من عدة وجوه:

أولاً: بناء القرآن على مقاصد عامة ترجع إليها جميع معاني سوره وآياته.

إذا كان القرآن مبنياً على مقاصد أساسية، ترجع سوره وآياته إليه، فلابد أن تكون هذه السورة هادية إلى هذه المقاصد، ودالة عليها، وإذا كان كذلك فلابد أن يكون لكل سورة جهة مخصوصة في الدلالة على المقصد الأساسي، فهذا دليل واضح على اختصاص كل سورة بمقصد معين [2] .

ثانياً: أن هذا القرآن أنزل محكماً، مفصل السور والآيات.

من أعظم دلائل مقاصد السور أن كتاب الله محكم كما قال تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١]، فهو كالكون في نظامه وانتظامه، وكل شيء في الكون له حكمة أرادها الله. والقرآن أعظم إحكاماً من الكون، كيف وهو كلام الله تعالى الحكيم الخبير.

---

(١) انظر ((مصاعد النظر)) (ص١٥٤).

(٢) انظر ((جواهر القرآن للغزالي)) (ص١٧).

ولا شك أن من إحكامه تقسيمه إلى سور محددة كل سورة تتميز باسمها وافتتاحيتها ومضمونها دال على انتظامها على مقصد مخصوص تهدي إليه جميع آياتها.

كما أن تعريف السورة بهذه الكلمة (سورة) يعني أنها بمثابة سور يحيط بموضوع معين، وهذا يعني أن كل سورة ذات محور يدور حوله موضوعها أو مواضيعها [١] .

ويؤكد انتظام السورة على مقصد معين يجمع آياتها ومعانيها أن الله تعالى قد تحدى العرب بسور القرآن في ثلاثة مواضع، ولولا أن هذه السورة مبنية بناء محكماً في لفظها ومعناها لما نص عليها في التحدي، فهذا التحدي دال على كمال هذه السورة من جميع الوجوه، ومن أعظمها انتظامها في مقصد واحد مع تفاوت موضوعاتها وقصصها. ولا يقل انتظامها من جهة المعنى عن انتظامها من جهة اللفظ، بل هما متلازمان إذ أن بناء اللفظ في الكلام مبني على المعنى [٢] .

ثالثاً: ظهور الفرق بين السور المكية والمدنية

من أعظم دلائل مقاصد السور، أن كل مرحلة من المرحلتين المكية والمدنية، تميزت بمقاصد معينة، وظهر الفرق بين سورهما، مما يدل دلالة ظاهرة على أن للسور خاصية في المعنى، وإذا كانت السور المكية مختلفة في مقاصدها عن السور المدنية، فإن هذا يؤكد تميز كل سورة بمقصد معين[٣] .

رابعاً: نزول القرآن حسب الأحوال والأحداث.

كان نزول القرآن منجماً حسب ما تقتضيه الحوادث والنوازل وما يتناسب مع الظروف والأحوال، وما يتواكب مع المراحل التي مرت بها الدعوة، ثم جاء ترتيبه في المصحف حسب ماكان في اللوح المحفوظ، ولهذا كان النبي ﷺ كلما نزل عليه آية أو آيات قال: ((ضعوا هذه الآية في مكان كذا من سورة كذا)) [٤] .

---

(١) انظر ((نظم الدرر)) ((التحرير والتنوير)) (١٦٢/١). (٦٢/١). ((بيان النظم في القرآن الكريم)) (ص١٠).

(٢) انظر المصدر السابق (١٦٣/١).

(٣) انظر ((منهجية البحث في التفسير الموضوعي)) (١٠٢).

(٤) رواه أحمد في المسند ٥٧/١، وأبو داود ٢٦٨/١ح٧٨٦، والترمذي ٢٧٢/٥ح٣٠٨٦.

وهذا دليل ظاهر على مقاصد السور من حيث أن هذا التنجيم كان لحكم عظيمة منها أن تنزل السور أو الآيات لغرض معين حسب ما يقتضيه الحدث والحال، وهذا مؤكد لتضمن السور للمقاصد. ويشهد لذلك أن النبي ﷺ كان يأمر الصحابة بوضع الآية أو الآيات في الموضع الخاص بها من السورة، وما ذلك إلا دليل على انتظام المعاني في السورة وبنائها على مقصد واحد.

سادساً: تسمية السور.

من أعظم الدلائل على مقاصد السور وضع أسماء للسور بما يرمز لمعانيها الدالة على المقصد منها. وأسماء السور توقيفية على قول الجمهور. قال السيوطي في الإتقان: " ثبت أن جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار " (١) .

وقد أبان هذا الأمر البقاعي بالتجربة فقال: " وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي إلى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها، لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه الدال إجمالاً على تفصيل ما فيه" (٢) .

ويؤكد ذلك جلياً الأمثلة التالية:

انظر مثلاً سورة الفاتحة فقد سميت بأم القرآن، وأم الكتاب و الأساس، وكل هذه التسميات دالة على معنى واحد وهو أنها تضمنت مقاصد القرآن كله، فهي أساسه.

وانظراً أيضاً إلى سورة الإخلاص، فإنه لم يرد لفظ الإخلاص فيها، سوى أن آياتها تدل عليه، فهو إذاً مقصدها. والمقصد حقيقة هو ما تهدي إليه معاني السورة وترجع إليه.

فنجد أن أسماء السورتين دالة على مقصدها ومضمونها، وهكذا.

---

(١) ((الإتقان في علوم القرآن)) (٥٢/١).

(٢) ((نظم الدرر)) (١٤٢/١).

إشكال وجوابه:

قد يرد على هذا الدليل إشكال وهو تعدد أسماء السورة الواحدة، وهذا يعارض كونه دالاً على المقصد. والجواب على هذا من وجهين:

أولاً: أنه إذا كانت الأسماء الواردة في السورة توقيفية فإنها تدل على تضمن السورة لعدة أغراض يجمعها غرض واحد.

فمثلاً سورة الكافرون، تسمى بالكافرون، وبالإخلاص، وبالمقشقشة.

وبالتأمل نجد أن هذه الأسماء راجعة إلى غرض واحد وهو البراءة من الكفر وأهله، وهذا من الإخلاص، وتمحيص من الكفر وأهله.

ثانياً: أنه إذا كانت الأسماء المتعددة في السورة مروية عن السلف، فإنها قد تكون دالة على الغرض من جهة، أو تكون دالة على لفظ أو معنى وارد في السورة.

فمثلاً سورة الفاتحة وورد عن السلف والمفسرين في تسميتها غير ماثبت عن النبي ﷺ أسماء منها (الشفاء والشافية، والأساس، والوافية، الكافية، والكنز، والشكر، الثناء، التفويض، الدعاء، النور، تعليم المسألة، السؤال) (١) .

وهذه الأسماء إما أنها مستدل بها من وصف النبي ﷺ لها، أو أنها مأخوذة من المعاني التي تدل عليها السورة وهي دالة على الغرض.

وحين نتأمل في هذه الأسماء نجدها كلها راجعة إلى مضمونها وغرضها وهو إثبات الحمد لله الذي هو الإحاطة بصفات الكمال، والشكر الذي هو تعظيم المنعم، وهي عين الدعاء فإنّه التوجه إلى المدعو أعظم توجه وأعظم مجامعها الصلاة. فهي وصف لله بالكمال المطلق الموجب لاختصاصه بالعبودية والسؤال.

إشكال آخر وجوابه

قد يرد على هذا الدليل أيضاً إشكال آخر، وهو تسمية بعض السور بأسماء

(١) ((أسماء القرآن الكريم)) (ص١٤٧).

الأنبياء أو القصص التي وردت فيها مع تضمنها لأسماء أنبياء آخرين أو قصص أخرى، مثل سورة يونس وهود.

والجواب على هذا ظاهر من وجهين:

أولاً: أن تكون تسميتها من باب أن هذه السورة انفردت بهذا الاسم أو القصة أو الحرف، أو تكرر ذكره فيها. كالبقرة، ويونس، وهود، و ق، وص. وهذا لا ينافي المناسبة بين الاسم والمضمون، بل إن مراعاة المضمون أولى من مراعاة مجرد الذكر أو التكرار.

ثانياً: أنه يمكن بالتأمل الثاقب أن نجد مناسبة ظاهرة بين الاسم والغرض.

فالبقرة وإن كانت القصة لم تذكر في غير هذه السورة، إلا إننا نجد سبباً أعظم دلالة من هذا السبب، ألا وهو كون القصة دالة على حال بني إسرائيل مع أوامر الله تعالى وتعنتهم وتشددهم وتمنعهم من تلقي أمر الله تعالى، وهذا في غاية المناسبة لسورة البقرة التي تضمنت تربية المؤمنين على تلقي شريعة الله تعالى ولذلك تضمنت السورة كليات الشريعة وأصولها، فكأن الاسم شعار للمؤمنين ليحذروا من التشبه بأصحاب البقرة، ولهذا ختمت السورة بقوله تعالى ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾[البقرة: ٢٨٥].

وفي سورة يونس تركيز على الموعظة والدعوة بالترغيب ولذلك افتتحت بالتذكير بآيات الله تعالى وحال المكذبين بها، وتخلل ذلك عرض للطف الله تعالى بأوليائه، وعباده المؤمنين والتائبين، وتضمنت الموعظة بالقرآن كما قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس: ٥٧]، ولذلك تضمنت قصة قوم يونس الذين آمنوا بعد ما دعاهم يونس وهددهم بالعذاب فكشف الله عنهم العذاب، فهذه القصة هي النموذج الإيجابي للغرض الذي تركز عليه السورة.

أما سورة هود فإنها تركز على الدعوة بالترهيب، ولذلك جاءت آياتها متضمنة للوعيد والتغليظ والتهديد كما في قوله: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾ [هو د: ٢] وقوله: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [هو: ٣-٤] وأشدّه ما ظهر في قصة قوم هود حين قال الله تعالى ﴿ وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ [هود: ٩٥-٦٠] ولم يعذب الله تعالى قوماً أشد من عذاب قوم هود. ويؤكد هذا الغرض قوله ﷺ: ((شيبتنى هود وأخواتها)) [(١)] .

وأما سورة ق وص فإنهما أكثر الحروف تكرراً في السورتين، وبالتأمل في علاقة هذه الحروف بموضونهما نجد ذلك ظاهراً فسورة ص أكثر ماورد فيها الخصومات، وسورة ق تكرر فيها لفظ القرآن والحق والقلب مرتين، وبينهما علاقة في ظهور الحق بالقرآن لمن كان له قلب.

فظهر بذلك جلياً أن لاسم السورة أثر في مضمونها وغرضها. لكن ذلك يحتاج لتأمل دقيق، وبصيرة نافذة. والله أعلم.

سابعاً: تكرار القصص في السور

من أعظم دلائل مقاصد السور، تكرر قصص القرآن في السور، بما ينبئ أن كل موضع دال على غرض مبني على غرض السورة، وهذا من أعظم دلائل إعجاز القرآن، حيث تتكرر القصة بأغراض مختلفة، مع اختلاف التعبير والأسلوب بحسب الغرض الذي سيقت من أجله.

(١) أخرجه الطبرانى في المعجم الكبير ٤٢٧/٥رقم ٥٦٧٢، أبو يعلى ٣٥٥/٢رقم ٨٤٥ قال الهيثمى (٣٧/٧): رجاله رجال الصحيح.

فتأمل مثلاً قصة موسى فقد تكررت في تسع سور من القرآن، وكل موضع تعالج فيه القصة غرضاً معيناً، ففي سورة البقرة جاءت القصة بغرض الامتنان على بني إسرائيل بالنعم، وبيان كفرهم وجحودهم لنعم الله تعالى فهي في بيان نهاية أمرهم، ولذلك جاءت في سياق تربية الأمة المحمدية وتحذيرها من مشابهة بني إسرائيل. وفي سورة الأعراف جاءت القصة لبيان أخبارهم وأحوالهم مع نبيهم ابتداءً، ويؤكد هذا أن سورة الأعراف مكية، وسورة البقرة مدنية.

ويشهد لهذا في السورتين مراعاة التعبير حسب السياق الذي وردت فيه القصة ففي سورة الأعراف يقول تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ ﴾[الأعراف :١٦٠].

وفي سورة البقرة يقول تعالى ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ ﴾[البقرة : ٦٠].

فتأمل التعبير في الآيتين تجد اختلاف التعبير بحسب السياق والغرض الذي وردت فيه القصة في السورة، وهذا من عظمة القرآن وإعجازه ففي آية الأعراف جاء التعبير بقوله ﴿ ٱسْتَسْقَىٰهُ ﴾ وذلك لأن الاستسقاء ابتداء صادر من قوم موسى، وفي البقرة جاء التعبير بقوله ﴿ ٱسْتَسْقَىٰ ﴾ وهذا وارد بصدور الاستسقاء من موسى إلى ربه تعالى بعد ذلك.

وفي آية الأعراف جاء التعبير بقوله ﴿ فَٱنۢبَجَسَتْ ﴾ والانبجاس ابتداء الخروج والانفجار وهو مناسب لغرض القصة فيها، وفي البقرة جاء التعبير بقوله ﴿ فَٱنفَجَرَتْ ﴾ والانفجار غاية الخروج وكماله. وهو مناسب لغرض القصة فيها.

فانظر إلى كمال القرآن ومراعاته للغرض في القصة أو السورة، وهو يدلك بجلاء على ثبوت علم مقاصد السور، فإذا ثبت الغرض في القصة فثبوته في السورة أعظم وأدل.

قال البقاعي في كتابه مصاعد النظر مؤكداً ذلك: " ولأجل اختلاف مقاصد السور، تتغير نظوم القصص وألفاظها، بحسب الأسلوب المفيد للدلالة على ذلك المقصد "[1] .

ثامناً: الأحاديث الواردة في فضائل السور، وتخصيص بعضها بأوقات

من دلائل هذا العلم تخصيص بعض السور بفضائل دالة على مقصدها كسورة الفاتحة، فقد ثبت في الصحيح من حديث أبي سعيد بن المعلى عن النبي ﷺ قال: (لأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ. . . . قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ))[2] . وهذا التفضيل لكونها تضمنت وصف الله تعالى بالكمال المطلق الموجب لاختصاصه بالعبادة، وهذا أعظم مقصود، فهي بذلك تضمنت مقاصد القرآن كله.

وفي سورة الإخلاص ورد بأنها تعدل ثلث القرآن، وهذا دال على غرضها فإنها تضمنت تحقيق الإخلاص.

ونرى أيضاً أنه قد ورد الأمر بقراءة بعض السور في أوقات معين، كقراءة سورتي الكافرون والإخلاص في ركعتي الطواف، وسنة الفجر والمغرب، والوتر. وهذا دال على غرضهما فإنهما تضمنتا تحقيق الإخلاص العلمي والعملي، فكأن المقصود افتتاح اليوم واختتامه بهما. وتجريد الطواف لله تعالى.

وجاء الفضل بقراءة الكهف يوم الجمعة، وأن من حفظ عشر آيات من أولها أو آخرها عصم من الدجال. وهو دال على ماتضمنته من غرض عظيم وهو الاعتصام من الفتن وبيان المخرج منها.

وبهذا نعلم أن تخصيص وتفضيل بعض الآيات والسور دال على ما تضمنته من غرض عظيم يبعث على تحقيق الإيمان والعمل في النفس. والله أعلم.

---

(١) ((مصاعد النظر)) (١٥٢/١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، رقم (٤٧٤).

قال البقاعي: " وعلى قدر المقصود من كلّ سورة تكون عظمتها، ويعرف ذلك مما ورد في فضائلها، ويؤخذ من ذلك أسماؤها، ويدلّ على فضلها كثرتها، فلا سورة في القرآن أعظم من الفاتحة؛ لأنّه لا مقصود أعظم من مقصودها. " [1] .

تاسعاً: الآثار الواردة عن السلف في بيان المقصد

بالنظر والتتبع فيما ورد عن السلف في التفسير نجد آثاراً دالة على عنايتهم بهذا الأمر، وأنه أمر معتبر عندهم بل هو متقرر في نفوسهم من غير أن يصرحوا فيه لكمال فهمهم لكتاب الله بما تميزوا به من معاصرة التنزيل، وكونهم أهل اللسان العربي الفصيح العارف باللغة وأساليبها.

ويبرز هذا العلم في آثارهم من جوانب

(الأول) ما ورد عنهم من تحديد لغرض السورة بالتعبير عنها بوصف أو اسم دال على الغرض.

فغالب ما ورد عنهم في تسمية السور غير التسمية التوقيفية ناتج عن دقة فهمهم لكتاب الله تعالى، فكأن هذه التسميات خلاصة فهمهم للسورة، وهو يدل على تقرر غرض السورة في نفوسهم.

ومن أمثلة ذلك:

- تسمية عمر وابن عباس رضي الله عنهم لسورة التوبة بالفاضحة كما أخرج البخاري عن سعيد بن جبير قال: " قلت لابن عباس سورة التوبة؟ قال: التوبة، هي الفاضحة مازالت تنزل: ومنهم، ومنهم حتى ظنوا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكر فيها" [2] .

وذكر السيوطي عن عكرمة قال: قال عمر رضي الله عنه: (مافرغ من تنزيل براءة حتى ظننا أنه لم يبق منا أحدا إلا سينزل فيه، وكانت تسمى الفاضحة) [3] .

---

(١) ((نظم الدرر)) (٢١٠/١).

(٢) أخرجه البخاري برقم ٤٨٨٢، ومسلم برقم ٣٠٣١.

(٣) ((الدر المنثور)) (١٢١/٤).

وسماها ابن عمر بالمقشقشة، كما نقل السيوطي عن زيد ابن أسلم: (أن رجلاً قال لعبدالله: سورة التوبة؟ فقال ابن عمر رضي الله عنهما، وأيتهن سورة التوبة فقال: براءة، فقال ابن عمر: وهل فعل بالناس الأفاعيل إلا هي، ماكنا ندعوها إلا المقشقشة)[١] . ووجه تسميتها بذلك بأنها تبرئ من النفاق والشرك.

وكلا التسميتين دالتان على الغرض وهو كشف أحوال الناس ومواقفهم من الدين والقتال في سبيله. ولذلك سميت بالتوبة إشارة إلى حال المؤمنين، وسميت بالفاضحة إشارة إلى حال المنافقين. وسميت براءة إشارة إلى حال المشركين.

وهذان الأثران من أهم الآثار الدالة على علم مقاصد السور.

فتأمل سؤال سعيد بن جبير لابن عباس عن السورة، وجواب ابن عباس له باسم دال على غرضها.

وتأمل سؤال الرجل لابن عمر عن السورة، وجواب ابن عمر له باسم دال على غرضها.

وهذا يؤكد أن أغراض السور متقرر لديهم، وربما عبروا عنه بوصف أو اسم. ولذلك وصفوهما باسم غير اسمها المشهور.

- ومن الأمثلة: وما ورد عن قتادة وعلي بن زيد والكلبي أنهم قالوا: سورة النحل هي سورة النعم، لكثرة تعداد النِّعم فيها. [٢] .

فتسميتها بذلك ظاهر من كونها تركز على هذا المعنى، وهذا هو مانسميه بالغرض والمقصد منها

(١) ((الدر المنثور)) (١٢١/٤).

(٢) زاد المسير: (٤ / ٤٢٥-٤٢٦)، الدر المنثور: (٥ / ١٠٧).

(الثاني) ما ورد عنهم من بيان لغرضها صريحاً.

ورد عن بعض الصحابة التصريح بأن السورة واردة في كذا، وهو بيان لغرضها، ومن أمثلة ذلك:

ما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: (كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وَجَد في نفسه، فقال: لم يُدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رُؤيتُ أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليُريهم فقال: ما تقولون في قول الله، عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ حتى ختم السورة فقال بعضهم: أمرنا أن نَحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفُتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ فذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول) [1]

فنلحظ أن عمر رضي الله تعالى عنه سأل الصحابة عن مغزى السورة، وهو مقصدها، وهذا يدل على تقرر مقاصد السور عندهم بفهمهم الثاقب.

وتأمل كيف تفاوت فهمهم لمغزى السورة، وهذا دليل على تفاوت الناس في فهم الغرض، فمنهم من يفهمه فهماً عاماً، ومنهم من يفهم منها فهما دقيقاً

قال الشاطبي: " ظاهر هذه السورة أن الله أمر نبيه ﷺ أن يسبح بحمد ربه ويستغفره إذا نصره الله وفتح عليه وباطنها أن الله نعى إليه نفسه" [2] .

وبالتأمل في السورة وغرضها نجده في تبشير الله بنصر الدين وتمامه وبيان مايشرع معه. وهذا الغرض متوجه ابتداءً لرسول الله ﷺ لإبلاغه بتمام رسالته

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي برقم ٣٦٢٧، وكتاب التفسير برقم ٤٢٩٤.

(٢) ((الموافقات)) (٣/٣٨٤)

وتبليغه، وإعلامه بقرب أجله. وهذا ظاهر في ألفاظ السورة. وهو مافهمه ابن عباس.

ومن الأمثلة أيضاً:

- ماورد عن ابن عباس في سورة الليل كما أورده السيوطي في الدر المنثور قال: (وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: إني لأقول هذه السورة نزلت في السماحة والبخل ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾)[1] ، وبالتأمل نجد أنها واردة في بيان أكمل صفات المؤمنين وهي السماحة والعطاء ولذلك نزلت في أبي بكر، وأسوأ صفات الكافرين وهو البخل والتكذيب، ولذلك نزلت في أمية بن خلف. وهو مارمز إليه ابن عباس رضي الله عنهما.

- وما ورد عن عمرو بن دينار في سورة التكاثر، كما أورده القرطبي قال: (وعن عمرو بن دينار: حلف أن هذه السورة نزلت في التجار)[2] . وبالتأمل نجد أنها واردة في شأن التكاثر بالأموال والأولاد ونسيان الآخرة، وهذا حال كثير من التجار، وهو مارمز إليه عمرو بن دينار رحمه الله.

- وما ورد عن محمد بن الفضل قال: (سورة الإخلاص، لأنه ليس فيها إلا التوحيد فقط) [3] . فتأمل كيف ربط بين الاسم والمضمون، وهو الغرض.

(الثالث) ما ورد عنهم من الأمر بمراعاة المقصود من كلام الله بالنظر لموضع الآية وسياقها.

ورد عن بعض السلف تأكيد على مراعاة الغرض المقصود من كلام الله تعالى بالنظر إلى الموضع الذي وردت فيه الآية وسياقها

(١) ((الدر المنثور)) (٥٩١/٦).
(٢) ((أحكام القرآن)) (١٦٩/٢٠).
(٣) ((أحكام القرآن)) (١٠/٤).

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " إن هذا القرآن كلام الله عز وجل، فضعوه على مواضعه، ولا تتبعوا فيه أهواءكم" (١) .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: " إذا سأل أحدكم صاحبه كيف يقرأ آية كذا وكذا، فليسله عما قبلها " (٢) .

و قال مسلم بن يسار" إذا حدّثت عن الله حديثاً فقف؛ حتى تنظر ما قبله وما بعده" (٣) .

ومقصودهم – والله أعلم – أن موضعها وما قبلها وما بعدها يدل على تحرير لفظها، بما يدعو إليه غرضها ومناسبة ورودها.

(الرابع) ماورد عنهم في المعرفة بأحوال السورة فيما أنزلت.

ورد عن بعض الصحابة التصريح بمعرفته للسور وأحوال نزولها ومن ذلك:

– ما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (والله الذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت ولو أعلم أن أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه)

– ماروي عَنْ مُجَاهد قَالَ: لَقَدْ عَرَضْتُ الْقُرْآنَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلاثَ عَرَضَاتٍ، أَقِفُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ أَسْأَلُهُ فِيمَ أُنْزِلَتْ؟ وَفِيمَ كَانَتْ؟) (٤) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في ((الزهد)) (ص٤٦ رقم ١٩٦)، وذكره السيوطي في ((الدر المنثور)) (٣٣٠/٧).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٤٨/٨ برقم ٨٦١١، وإسناده صحيح.

(٣) ((تفسير القرآن العظيم لابن كثير)) (٦/١)..

(٤) أخرجه الدارمي في السنن كتاب الطهارة برقم ١١٦٧، والحاكم في المستدرك ١٠٦/٣برقم ٣١٠٥، وقال الذهبي: على شرط مسلم..

– وعَنْ نَافع قَالَ كَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضيَ اللّهُ عَنْهُمَا إِذَا قَرَأ الْقُرْآنَ لَمْ يَتَكَلَّمْ حَتَّى يَفْرُغَ منْهُ فَأَخَذْتُ عَلَيْه يَوْمًا فَقَرأ سُورَةَ الْبَقَرَةِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَكَانٍ قَالَ تَدْرِي فِيمَ أُنْزِلَتْ قُلْتُ لا قَالَ أُنْزِلَتْ فِي كَذَا وَكَذَا ثُمَّ مَضَى) [1] .

فنلحظ من هذه الآثار عناية الصحابة بمعرفة أحوال النزول، ونستمد من ذلك عنايتهم بأغراض الآيات والسور كما هو المفهوم من قولهم (فيم نزلت) قال الحسن عن عمر: (والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن يعلم فيم أنزلت وماذا عني بها) [2] .

فقوله (ماذا عُني بها) يقصد غرضها ومقصدها. وهذا يؤكد عنايتهم بذلك وأنه أمر مستقر في نفوسهم بالاستقراء والممارسة.

وكل هذه الوجوه تؤكد لنا أصل هذا العلم العظيم، وتاريخه ونشأته الأولى في عهد السلف، وأنه علم معتبر عندهم بالاستقراء والممارسة حتى أصبح علماً مستقلاً.

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير برقم ٤٥٢٦.

(٢) ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) (١/٨١).

المبحث الرابع

أقوال أهل العلم في مقاصد السور واعتبارها.

جاءت أقوال أهل العلم كثيرة في اعتبار علم مقاصد السور، وأنه أصل معتبر في كتاب الله تعالى كاعتبار علم المناسبات بين السور والآيات، بل هو أعظم أهمية وأقوى دلالة، وأكثر أثراً في بيان المعاني وكشف دقائقها، وأجلى في بيان نظام القرآن وبلاغته وإعجازه.

قال البقاعي: " فإن كل سورة لها مقصد واحد يدار عليه أولها وآخرها ويستدل عليه فيها" [١] .

ويقول محمد دراز في كتابه النبأ العظيم مؤكداً هذا المعنى: " إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حشوت حشواً، وأوزاعاً من المباني جمعت عفواً، فإذا هي لو تدبرت بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أساس وأصول "[٢] .

ويقول أيضاً: " قال الأئمة: إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة، وأنه لاغنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لاغنى له عن ذلك في أجزاء القضية الواحدة"[٣] .

ويقول الفراهي: " اعلم أن تعيين عمود السورة هو إقليد لمعرفة نظامها" [٤] .

ويقول سيد قطب: " ومن ثم يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة من سوره شخصية مميزة! شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس " [٥] .

---

(١) ((مصاعد النظر)) (١٤٩/١).

(٢) ((النبأ العظيم)) (ص١٥٥).

(٣) ((النبأ العظيم)) (ص١٥٩).

(٤) ((دلائل النظام)) (ص١٦).

(٥) ((في ظلال القرآن)) (١٨/١).

ويقول أحمد بدوي في بلاغة القرآن: " وهكذا تجد هدفاً عاماً تدور حوله السورة، وتتبعه معان أخرى تؤكده ويستتبعها، ويخلص الإنسان في السورة من معنى إلى آخر خلوصاً طبيعياً لا عسر فيه ولا اقتصار " (١).

ويقول محمد حجازي في بحثه (الوحدة الموضوعية في القرآن): " كل سورة لها هدف وغرض تسعى لتحقيقه، وتسلك في سبيل ذلك مسلكاً خاصاً، فتطرق عدة معان تأخذ من كل ما يناسبها، وكل سورة تكون وحدة كاملة مترابطة الأجزاء، ولهذا سميت سورة" (٢).

ويقول د. مساعد الطيار: " وقد يظهر لبعض المتدبرين لمثل هذه السور التي تتعدد في موضوعاتها خيط رفيع يجمعها في موضوع واحد، وهو ما اصطلح عليه – عند من اعتنى به من المعاصرين – بمصطلح (الوحدة الموضوعية) " (٣).

ويقول د. محمد جميل غازي: " لكل سورة ميزتها، ولكل سورة جوّها، ولكل سورة فلكها الذي تدور حوله. . . " (٤).

ويقول د. زياد خليل: " إنه مهما طالت السورة أو قصرت، ومهما تعددت موضوعاتها وتفرعت فإنها في النهاية تأتلف وتنسجم، بل وتتحد وتنتهي إلى أصل واحد كما تنتهي فروع الشجرة وأفنانها إلى أصل واحد، ولله ولكتابه المثل الأعلى " (٥).

ويقول محمد فاروق الزين: " لابد لكل قارئ للقرآن أن يلاحظ أن لكل سورة قرآنية شخصيتها المختلفة عن الأخرى، وهذا الأمر يبدو شديد الوضوح عندما ينتهي المرء من قراءة إحدى السور، وينتقل إلى أخرى، ومن هنا يبدو أحد جوانب التحدي القرآني للكفار أن يأتوا بسورة من مثله " (٦).

---

(١) ((من بلاغة القرآن)) (ص٢٣٠).

(٢) ((الوحدة الموضوعية في القرآن)) (ص٤٥٠).

(٣) ((المحرر في علوم القرآن)) (ص٢١٤).

(٤) ((تفسير سورة إبراهيم)) (ص٩).

(٥) ((منهجية البحث في التفسير الموضوعي)) (ص١٧٣).

(٦) ((بيان النظم في القرآن الكريم)) (ص١١).

المبحث الخامس

عناية المفسرين بعلم المقاصد، ومناهجهم فيه، والكتب المؤلفة فيه

لما كان هذا العلم يُعنى بحكمة نزول القرآن ومقصده الأعظم وهو الهداية والدعوة إلى عبادة الله تعالى كانت عناية السلف به ظاهرة كما سبق تقريره، وتوالت عناية المفسرين به بعد ذلك مع تفاوت بينهم في ذلك. إذ إنه علم يحتاج إلى نظر ثاقب وتدبر لمراد الله تعالى.

ويمكن لنا أن نقسم المفسرين في العناية بهذا العلم إلى أصناف:

الصنف الأول: المفسرون الذين أشاروا لمقاصد السورة من غير تصريح.

نجد أن غالب المفسرين المتقدمين قد عنوا بهذا العلم ضمن عنايتهم بعلم النزول وأحواله، وعنايتهم بعلم المناسبات، دون التصريح بلفظ الغرض أو المقصد.

ومن أولئك المفسرين ابن جرير الطبري وابن عطية وابن كثير والقرطبي رحمهم الله.

- فمثلاً نجد ابن جرير عند كلامه عن سورة آل عمران يقول: " وقد ذُكر أن هذه السورة ابتدأ الله بتنزيله فاتحتها بالذي ابتدأ به: من نفي"الألوهية" أن تكون لغيره، ووصفه نفسه بالذي وصَفها به في ابتدائها، احتجاجًا منه بذلك على طائفة من النصارى قدموا على رسول الله ﷺ من نَجْرَان فحاجُّوه في عيسى صلوات الله عليه، وألحدوا في الله. فأنزل الله عز وجل في أمرهم وأمر عيسى من هذه السورة نيفًا وثمانين آية من أولها، احتجاجًا عليهم وعلى من كان على مثل مقالتهم، لنبيّه محمد ﷺ "(١).

(١) ((جامع البيان)) (٦/١٥٠).

فنرى أنه ذكر المغزى الذي ركزت عليه السورة معتمداً على سبب نزولها. وهذا هو المنهج الحق في معرفة غرض السورة كما سيتبين.

- ونجد ابن عطية يشير لذلك في كلامه عن سورة القدر ويقرر قوله بقول جماعة من المفسرين فيقول: " وقال جماعة من المتأولين معنى قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾[القدر :١] إنا أنزلنا هذه السورة في شأن ليلة القدر وفي فضلها" (١).

- ونجد القرطبي يشير لذلك في كلامه عن سورة الأنعام، وينقل قول العلماء في تقرير الغرض فيقول: " قال العلماء: هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين، ومن كذب بالبعث والنشور وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة لأنها في معنى واحد من الحجة وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة وعليها بنى المتكلمون أصول الدين لأن فيها آيات بينات ترد على القدرية دون السور التي تذكر والمذكورات" (٢).

- ونجد ابن كثير يشير لذلك أيضاً في كلامه عن سورة الكافرون فيقول: " هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه" (٣).

الصنف الثاني: المفسرون الذين صرحوا بمقصد السورة، وكان لهم عناية في هذا العلم، من غير أن يكون لهم منهج مطرد في ذلك.

ومنهم الزمخشري والرازي، وابن الزبير، والشاطبي، وابن تيمية ـ وابن القيم رحمهم الله.

- فأما الزمخشري فله إشارات في ذلك فمثلاً يقول: " وهذا المعنى مطابق لمعاني السورة" (٤).

(١) ((المحرر الوجيز)) (٤٨/٧).
(٢) ((الجامع لأحكام القرآن)) (٣٨٢/٦).
(٣) ((تفسير ابن كثير)) (٥٠٧/٨).
(٤) ((الكشاف)) (٤٦٢/١).

- وأما الرازي فقد كان أكثر عناية وتطبيقاً في تفسيره، وقد صرح بغرض السورة ومقصدها، وعنى ببيانه في تفسيره، وإن لم يكن له منهج مطرد فيه، فمثلاً في كلامه عن سورة مريم يقول: " اعلم أن الغرض من هذه السورة بيان التوحيد والنبوة والحشر "[1].

ويقول في معرض تفسيره لسورة يس: " ويمكن أن يقال بأن هذه السورة ليس فيها إلا تقرير الأصول الثلاثة بأقوى البراهين، فابتداؤها بيان الرسالة. . وانتهاؤها بيان الوحدانية والحشر" [2].

- وأما ابن الزبير فقد ظهرت عنايته في هذا الباب في كتابه البرهان في تناسب سور القرآن، وكانت عنايته في هذا العلم من خلال بيان التناسب بين السور بذكر مضمون كل سورة ومقصدها ومناسبته لما بعدها، فمثلاً في المناسبة بين سورتي سبأ وفاطر يقول: " تجردت سورة سبأ لتعريف العباد بعظيم ملكه سبحانه، وتجردت هذه الأخرى –يعني فاطر – للتعريف بالاختراع والخلق، وشهد لهذا استمرار آي سورة فاطر على هذا الغرض من التعريف، وتنبيهها على الابتداءات. . . يتضح لك ماذكرناه، وما انجر في السورتين مما ظاهره الخروج عن هذين الغرضين، ملتحم ومستدعى بحكم الانجرار بحسب استدعاء مقاصد الآي. رزقنا الله الفهم عنه بمنه " [3].

وربما أشار ابن الزبير عن المقصد بلفظ آخر، فمثلاً في سورة النساء يقول في مقصدها: " بناء هذه السورة على التواصل والائتلاف، ورعي حقوق ذوي الأرحام، وحفظ ذلك كله إلى حالة الموت المكتوب علينا " [4].

---

(١) ((التفسير الكبير)) (٣١٠/١٠).
(٢) المصدر السابق (١٣-٢٦/٩٩).
(٣) ((البرهان في تناسب سور القرآن)) (ص٢٨٧).
(٤) ((البرهان في تناسب سور القرآن)) (ص٨٧).

كما ظهرت عنايته بهذا العلم في كتابه (ملاك التأويل) [1].

- وأما الشاطبي فقد كان له عناية فائقة بالمقاصد، ويكفي في ذلك كتابه الموافقات، وقد ألفت رسالتان في إبراز عنايته بهذا العلم، وهي رسالة (نظرية المقاصد عند الشاطبي) للدكتور أحمد الريسوني، ورسالة بعنوان (قواعد المقاصد عند الإمام الشاطبي) لعبدالرحمن الكيلاني.

وقد ظهرت عنايته بمقاصد السور تبعاً لذلك، حيث جعل تدبر القرآن كله راجع إلى المقاصد فيقوله: " وقال تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد ٢٤] التدبر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد" [2].

ويمثل لهذه القاعدة بعدة سور فيقول: " فسورة الكوثر ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ ﴾نازلة فى قضية واحدة. وسورة اقرأ نازلة في قضيتين الأولى إلى قوله ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ والأخرى ما بقي إلى آخر السورة. وسورة المؤمنون نازلة في قضية واحدة وإن اشتملت على معان كثيرة فإنها من المكيات وغالب المكي أنه مقرر لثلاثة معان أصلها معنى واحد وهو الدعاء إلى عبادة الله تعالى. . . إلا أنه غلب على نسقها ذكر إنكار الكفار للنبوة التي هي المدخل للمعنين الباقين. . . فهذا النظر إذا اعتبر كليا في السورة وجد على أتم من هذا الوصف لكن على منهاجه وطريقه. . . وعلى حذو ما تقدم من الأمثلة يحتذى فى النظر فى القرآن لمن أراد فهم القرآن والله المستعان " [3].

- أما شيخ الإسلام ابن تيمية فقد كان له فهم ثاقب بعلم المقاصد عموماً، بل هو إمام فيه، وقد ألفت رسالة خاصة فيه لإبراز عنايته بهذا العلم بعنوان (مقاصد الشريعة عند شيخ الإسلام ابن تيمية) ليوسف بن أحمد البدوي.

---

(١) انظر مثلاً ٨١٨/٢، ١٠٣٣، ١٠٥٩، ١٠٦٠، ١٠٨٩، ١١٢٦ .).

(٢) ((الموافقات)) (٣٨٣/٣).

(٣) ((الموافقات (٤١٥/٣).

وظهرت عنايته بمقاصد القرآن وسوره تبعاً لذلك، بل قد ظهر تركيزه في إبراز المعنى الجامع لمعاني السورة وهو الغرض.

فمثلاً يقول في سورة البقرة: : " وقد ذكرت في مواضع ما اشتملت عليه سورة البقرة من تقرير أصول العلم و قواعد الدين" [١]. ويقول في سورة براءة يقول: " فأكثرها في وصف المنافقين وذمهم " [٢].

ويقول في سورة القمر: " وكان النبي ﷺ يقرأ هذه السورة - يعني سورة القمر - في المجامع الكبار مثل الجمع والأعياد ليسمع الناس ما فيها من آيات النبوة ودلائلها والاعتبار وكل الناس يقر بذلك ولا ينكره فعلم أن انشقاق القمر كان معلوما عند الناس عامة ثم ذكر حال الأنبياء ومكذبيهم" [٣].

- وأما ابن القيم فهو من أبرز من عُني باستكشاف مقاصد السور بما وهبه الله من دقة في فهم الأدلة والنصوص والتركيز على جوانب الحكمة فيها وإبراز مراد الشارع فيها وقد تأثر في ذلك كله بشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وقد شهد بعنايته بعلم مقاصد السور أحد الدارسين لمنهجه في التفسير وهو الدكتور محمد السنباطي، حيث يرى أن له الريادة في هذا الفن، وأن له الفضل على أصحاب المدرسة الحديثة في التفسير فيقول: " إن ابن القيم رائد المدرسة الحديثة التي تهتم بأن تقدم أمام تفسير السورة الإطار العام للأهداف السامية التي جاءت السورة لتعالجها، وتمثل الروح الذي يسري في كيان السورة، فيربط بين أجزائها، ويجعل كل جزء فيها خادماً للآخر، ومخدوماً منه، في سبيل تحقيق الرسالة العظمى التي قصد من السورة أن تؤديها " [٤].

---

(١) ((مجموع الفتاوى)) (٤١/١٤).

(٢) ((مجموع الفتاوى) (٢٢٢/١).

(٣) ((الجواب الصحيح)) (١/ ٤١٣).

(٤) ((منهج ابن القيم في التفسير)) ص (٨٤، ٩٢).

وإن كان في كلام الدكتور السنباطي مبالغة، لأننا لم نجد في تراث ابن القيم وتفسيره على وجه الخصوص هذا المنهج مطرداً، لأن غالب ماكتبه في ذلك ورد في عرض حديث عن السورة أو بعض آياتها.

فمثلاً نجده قد نص على مغزى سورة الكافرون ومقصدها فقال: " إن مغزى سورة الكافرون ولبها ومقصودها هو براءته ﷺ من دينهم ومعبودهم " (١).

وقال في كلامه على سورتي المعوذتين: " تضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه " (٢).

وفي سورة العنكبوت يقول: " فمضمون هذه السورة هو سر الخلق والأمر فإنها سورة الابتلاء والامتحان وبيان حال أهل البلوى في الدنيا والآخرة ومن تأمل فاتحتها ووسطها وخاتمها وجد في ضمنها أن أول الأمر ابتلاء وامتحان ووسطه صبر وتوكل وآخره هداية ونصر والله المستعان يوضحه " (٣).

الصنف الثالث: المفسرون والعلماء الذين عنوا بعلم مقاصد السور، وسلكوا فيه منهجاً في تفاسيرهم:

عني بعض المفسرين بعلم مقاصد السور عناية خاصة، وسلكوا فيها منهجاً مطرداً في جميع السور، مع اختلاف مناهجهم في ذلك.

ولعلي أعرض لبعض منها:

أولاً: الفيروز أبادي في كتابه بصائر ذوي التمييز

عُني الفيروز أبادي بدراسة السور دراسة موضوعية، بوضع مقدمات لكل سورة، منها مقدمة في مقاصد السورة.

---

(١) ((التفسير القيم)) (ص٥٣١).

(٢) ((بدائع الفوائد)) (٤٣١/٢).

(٣) ((شفاء العليل) ص (٢٤٧).

ومن الأمثلة في ذلك:

قال في سورة الأحزاب: " معظم مقصود السورة الذي اشتملت عليه: الأمر بالتقوى، وأنه ليس في صدر واحد قلبان، وأن المتبني ليس بمنزلة الابن. . . " ثم عدد أكثر من ثلاثين موضوعاً [١].

وبالتأمل نجد أن منهجه ليس مركزاً على تحديد الغرض الأساسي للسورة، وإنما هو إجمال لما اشتملت عليه السورة من موضوعات.

ثانياً: البقاعي في (مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور) و (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور).

يعتبر البقاعي هو العمدة في علم مقاصد السور، فهو الذي أرسى قواعده، وخط منهجه، وألف فيه تأليفاً مستقلاً.

ويبين البقاعي معالم هذا العلم والتعريف به فيقول في كتابه مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: " هو علم يعرف منه مقاصد السور، وموضوعه: آيات السور، كل سورة على حيالها، وغايته: معرفة الحق من تفسير كل آية من تلك السور، ومنفعته: التبحر في علم التفسير، فإنه يثمر التسهيل له والتيسير، ونوعه: التفسير، ورتبته: أوله، فيشتغل به قبل الشروع فيه ـ فإنه كالمقدمة له من حيث إنه كالتعريف، لأنه معرفة تفسير كل سورة إجمالاً، وأقسامه: السور " [٢].

وقد بسط الحديث في طريقة السلوك في تحصيله بما سأفصله في مبحث خاص بإذن الله.

ولعلي أعرف بكتابيه السابقين:

١ - مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور

هذا الكتاب يعتبر مقدمة لتفسيره: (نظم الدرر) فهو يعتبر من علوم القرآن

(١) ((بصائر ذوي التمييز)) (٣٧٨/١)

(٢) ((مصاعد النظر)) (ص١٥٥).

الكريم المساعدة لعلم تفسير القرآن الكريم، إذ هو مما يتحدث عن القرآن العظيم وليس مما يتحدث فيه.

وأما منهجه فيه: فقد جعل "البقاعي" لكتابه "المصاعد" مقدمة طويلة بين فيها اسم الكتاب واختراعه له والدافع إلى تأليفه مما وقع له بسبب كتابه (نظم الدرر) ذاكرا مواقف العلماء من تفسيره مدحا واعتراضا، ونقل بعض ثناء العلماء على تفسيره، وقد افتتح كتابه ببيان فضائل القرآن عامة، وتحدث عن علم التناسب معرفا له ومبينا منزلته من علم البلاغة وغايته ومنفعته وغير ذلك مما عرض له.

ثم نجده يقدم بين يدي التعريف بالمقصد بذكر أهم المقدمات في السورة.

٢- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور.

وهذا الكتاب يعتبر تفصيلاً لكتابه الأول، ففيه بسط للمقصد الذي يحدده على آيات السورة كلها. وقد ركز فيه على علم المناسبات، إذ إنه يفتتح كل سورة بذكر مناسبتها لما قبلها، ثم يفصل في ذكر المناسبات بين الآيات مع نظمها بالمقصد الأعلى للسورة.

ويعتبر هذا الكتاب عمدة في علم المقاصد بعد الكتاب الأول له.

ثالثاً: المفسرون المتأخرون وأصحاب المدرسة الحديثة:

من أبرز من عنى بمقاصد السور، المفسرون المتأخرون وأصحاب المدرسة الحديثة. ولعلي أعرض أبرزهم عناية بهذا العلم:

١- سيد قطب في ظلال القرآن:

وهذا الكتاب من أبرز التفاسير المتأخرة عناية وتركيزاً على مقصد السورة تحت مسمى الوحدة الموضوعية، أو شخصية السورة، أو المحور الأساسي لها.

وقد قال عنه عدنان زرزور: " لعل – سيد – أول مفسر في تاريخ القرآن الكريم أبرز الوحدة الموضوعية في السور القرآنية المفردة طالت أم قصرت، أبرزه بشكل عملي مكتوب، أو طبقه أروع تطبيق وأعمقه في كتابه العظيم " (١).

---

(١) ((علوم القرآن)) (ص٤٣١).

وقال صلاح الخالدي في كتابه (مدخل إلى ظلال القرآن): " لاحظ سيد قطب الوحدة الموضوعية في القرآن، وقال بها وحرص على بيانها في الظلال، إن كل سورة تمثل عنده وحدة متناسقة واحدة. . . ولقد وقف متفرداً بين جميع المفسرين في بيان الوحدة الموضوعية " (١).

ومنهج سيد قطب في عرض الوحدة الموضوعية للسورة منهج فريد ذلك أنه يجعل السورة كلها وحدة موضوعية، فيعرف بمحورها، ثم يقسمها تقسيما موضوعيا ملتحماً مع المحور بحيث يشعر القارئ بوحدة موضوعية متناسقة متناسبة، ذات شخصية فريدة، وكأنها مشهد حي، يتفاعل معه القارئ بروحه وإحساسه، ويشعر معه بروحانية ووجدان، ينمي فيه حباً وتعظيماً للقرآن.

ومع أن سيداً سيدٌ في هذا الباب إلا أننا نجده كثيراً ما يركز على إبراز الجوانب الفنية التي تتميز بها السورة، مع غير اعتبار لتحليل الألفاظ والتراكيب ودلالاتها على المقصد.

كما نجده كثيراً مايذكر أن السورة تدور على عدة محاور أو اتجاهات أو أشواط أو جولات أو أهداف كما يعبر عن ذلك من غير أن يحدد المحور الرئيس.

وأيضاً فإننا نجده كثيراً ما يجعل السور المكية تحت هدف واحد دون التمييز بينها، فمثلاً نجده يقول في كلامه على سورة القمر: " ومحتويات السورة الموضوعية واردة في سور مكية شتى، فهي مشهد من مشاهد يوم القيامة في المطلع، ومشهد من هذه المشاهد في الختام، وبينهما عرض سريع لمصارع قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وفرعون وملئه، وكلها موضوعات تزخر بها السور المكية في صور شتى، لكن هذه الموضوعات ذاتها تعرض في هذه السورة عرضاً خاصاً يحيلها جديدة كل الجدة " (٢).

---

(١) ((مدخل إلى ظلال القرآن)) (ص١١١).

(٢) ((في ظلال القرآن)) (٧٣/٧).

وهذا وإن كان محل قبول من جهة إلا أننا لابد أننا نخرج بنتيجة ظاهرة في أن كل سورة تعالج غرضاً معيناً ومقصوداً.

ومع هذا كله فإننا نستطيع القول بأن منهج سيد قطب رحمه الله يمثل منهجاً فريداً في عرض هذا العلم وتطبيقه بأسلوب فريد تميز ببث الروح فيه والحركة الفنية التي تنفذ إلى نفس القارئ وهو يشعر بعظمة القرآن ويعيش مع السورة كأنها صورة حية في مشاهدها وتعبيراتها.

ولعلي أذكر نماذج من بيانه للمقاصد لنرى مايتميز به من إبراز الجوانب الفنية والأسلوبية.

ففي سورة الأنعام يقول: " إنها اللمسات العريضة للحقيقة الكبيرة؛ والإيقاعات المديدة في مطلع السورة. وهي ترسم القاعدة الكلية لموضوع السورة ولحقيقة العقيدة "(١).

وفي سورة المؤمنون يقول: " سورة "المؤمنون" أو هي سورة الإيمان، بكل قضاياه ودلائله وصفاته. وهو موضوع السورة ومحورها الأصيل" (٢).

وفي سورة النور يقول: " والمحور الذي تدور عليه السورة كلها هو محور التربية التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود. وترقى إلى درجة اللمسات الوجدانية الرفيقة، التي تصل القلب بنور الله وبآياته المبثوثة في تضاعيف الكون وثنايا الحياة" (٣).

٢- ابن عاشور في التحرير والتنوير

يعتبر ابن عاشور من أبرز من عنى بهذا العلم وتطبيقه في تفسيره، وقد وضع مقدمة من مقدمات تفسيره في المقاصد، وألف كتاباً مستقلاً في (مقاصد الشريعة)، لكن منهجه في بيان مقاصد السور ليس على تحديد المقصد الأساسي

(١) المصدر السابق (٤٦٢/٢).

(٢) ((في ظلال القرآن)) (٢٢٠/٥).

(٣) ((في ظلال القرآن)) (٢٨٩/٢).

في السورة وإنما يعرض في مقدمة كل سورة لمجموعة أغراض تتضمنها السورة، وهي في الواقع موضوعات. وطريقته في ذلك تشبه طريق الفيروز أبادي في البصائر، في ذكر ما اشتملت عليه السورة.

وإن كنا نجده يعرض في ثنايا كلامه عن السورة لغرض السورة العام.

فمن أمثلة تقديمه للسور بالأغراض

قال في أغراض سورة البقرة: " محتويات هذه السورة: هذه السورة مترامية أطرافها، وأساليبها ذات أفنان، قد جمعت من وشائج أغراض السور ما كان مصداقاً لتلقيبها فسطاط القرآن. . . ومعظم أغراضها ينقسم إلى قسمين: قسم يثبت سمو هذا الدين على ماسبقه وعلو هديه وأصول تطهيره، وقسم يبين شرائع هذا الدين لأتباعه وإصلاح مجتمعهم " (١). ثم استطرد في بيان مجمل ما اشتملت عليه.

ومن أمثلة تركيزه في السورة نفسها على الغرض الأساسي يقول في سورة آل عمران نفسها: " لما كان أول أغراض هذه السورة، الذي نزلت فيه، هو قضية مجادلة نصارى نجران حين وفدوا إلى المدينة، وبيان فضل الإسلام على النصرانِيَّة، لا جرم افتتحت بحروف التهجّي، المرموز بها إلى تحدّي المكذّبين بهذا الكتاب " (٢).

ونلحظ أنه كثيراً ما يربط بين افتتاح السورة وغرضها، وبين غرضها وأحوال نزولها.

ففي ربطه للغرض بأسباب النزول يقول في سورة لقمان: " الأغراض التي اشتملت عليها هذه السورة تتصل بسبب نزولها الذي تقدم ذكره أن المشركين سألوا عن قصة لقمان وابنه " (٣)

(١) ((التحرير والتنوير)) (٢٠٣/١،).

(٢) المصدر السابق (٢٤/٣).

(٣) المصدر السابق (١٣٨/٢٠)

وفي ربطه للغرض بافتتاح السورة يقول في سورة الأحزاب: " افتتاح السورة بخطاب النبي ﷺ وندائه بوصفه مؤذن بأن الأهم من سوق هذه السورة يتعلق بأحوال النبي ﷺ " [١].

٣- المراغي في تفسيره.

المراغي عُني بمقاصد السور، فكان يقدم للسورة مناسبتها لما قبلها، وختم السورة بذكر مقاصدها وبيان مجمل ما اشتملت عليه، ومنهجه في ذلك منهج الفيروز أبادي، وابن عاشور في ذكر مجمل ماتشتمل عليه السورة.

ولعلي أعرض نموذجاً من تفسيره:

فمثلاً في سورة التحريم

بين أولاً مناسبتها لسورة الطلاق فقال: ". . . تلك في خصام نساء الأمة، وهذه في خصومة نساء النبي ﷺ، وقد أفردن بالذكر تعظيماً لمكانتهن "

ثم شرع في تفسير السورة على عدة محاور:

ثم ختم السورة ببيان أهم ماشتملت عليه من مقاصد فقال: " اشتملت هذه السورة على شيئين:

(١) أخبار نساء النبي ﷺ. . . . من أول السورة إلى قوله ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ [التحريم : ٩] .

(٢) ضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام. " [٢].

٤- الفراهي في نظام القرآن

يعتبر الفراهي من أبرز الذين أصلوا منهج مقاصد السور، وقد ألف كتابه نظام

(١) المصدر السابق (٢١/ ٢٤٩).

(٢) ((تفسير المراغي)) (١٠ / ١٤٣)

القرآن لهذا الغرض، وجعل له مقدمة سماها دلائل النظام، أصّل فيه منهج استخراج المقصد في السورة. ويقصد بالنظام: معرفة روابط الكلام وتركيبه وأجزائه، وتناسب بعضه، أو عمود الكلام وحسن ترتيبه. ويقصد بالعمود: جماع مطالب الخطاب، وهو المحصول والمقصود منه، فهو روح الكلام وسره، فهو يكون خفياً لا يطلع عليه إلا بعد استيفاء الكلام والتدبر فيه، والكلام شرحه وتفصيله، وإنتاجه وتعليله. [1].

وبالنظر في منهج الفراهي في التطبيق نجد أنه يعتمد على إبراز عمود السورة، فنرى أنه على سبيل المثال يرى أن عمود سورة البقرة هو الإيمان المطلوب، ولذلك ابتدأت به واختتمت به. وعمود سورة آل عمران هو الإسلام وهو طاعة النبي ﷺ، وأن سورة النساء تبين أن الشريعة رحمة على الناس كافة، وكذلك صاحبها، وسورة المائدة (العقود) فيها بناء الإسلام على العقد الإلهي، ويذكر أواسط هذا العقد ونهايته [2].

٥- محمد علي الصابوني في قبس من نور القرآن، وصفوة التفاسير.

عُنى الصابوني عناية خاصة بعلم مقاصد السور وتطبيقه لذا ألف كتاباً مستقلاً فيه سماه (قبس من نور القرآن، دراسة تحليلية موسعة بأهداف ومقاصد السور الكريمة)

وبالاطلاع على منهجه في الكتاب نجد أنه يفسر القرآن تفسيراً موضوعياً، فيبدأ بذكر مقدمات للسورة، ثم يضع لكل مقطع عنواناً يفسر المقطع تفسيراً موضوعياً،

وفيما يتعلق بمنهجه في تحديد المقصد نجد أنه لا يُعني بتحديد مقصد واحد وإنما يشير لأبرز ماتضمنته السورة، وربما أشار لذلك بعبارة تشير إلى أبرز موضوع أو قضية ركزت عليها السورة

---

(١) ((دلائل النظام)) (ص٧٢).

(٢) المصدر السابق (٩٣-٩٤).

ويحدد منهجه في مقدمة كتابه فيقول: " فهذه دراسة موضوعية تحليلية موسّعة لسور القرآن الكريم، تبين مقاصدها، وأهدافها، وتضع الخطوط العريضة لما احتوته من آداب، وأحكام وتشريع، وما هدفت إليه من توجيه وإرشاد، في إطار إصلاح الفرد والمجتمع "(١).

وأعرض لنماذج من كتابه في ذلك تؤكد منهجه:

ففي سورة آل عمران يقول: " وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على ركنين هامين: أولهما ركن العقيدة الإسلامية الصافية، مع ذكر الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين، والثاني: ركن التشريع، وبخاصة فيما يتعلق بأحكام الجهاد في سبيل الله تعالى "(٢).

ونجده في سورة المائدة يكرر ما ذكره في سورة البقرة لكونهما مدنيتين ركزتا على الأحكام التشريعية فيقول: " وجماع السورة يتناول الأحكام التشريعية التي بيّنها الله لعباده المؤمنين، لأن الدولة الإسلامية كانت في بدء تكوينها، وهي بحاجة إلى المنهج الرباني "(٣).

وبهذا نخلص بأن منهجه في تحديد مقاصد السور، منهجاً موضوعياً بذكر الموضوع الذي ركزت عليه السورة، وهذا يختلف عن الغرض كما بيّنت، وإن كان يدل عليه.

ومنهجه في ذلك هو المنهج الذي سلكه في تفسيره (صفوة التفاسير) فنجده يضع مقدمة لكل سورة بعنوان (بين يدي السورة) يعرف فيه بالسورة ويذكر مجمل ما تناولته من الموضوعات والأحكام.

٦- وهبة الزحيلي في التفسير المنير

نهج الزحيلي في تفسيره التفسير المنير منهجاً جيداً بحيث يفتتح السورة بمقدمات تعريفية عن السورة تتضمن بيان ما اشتملت عليه من الموضوعات

(١) ((قبس من نور القرآن)) (٥/١)

(٢) المصدر السابق (١٠٥/١).

(٣) المصدر السابق (٧١/٣).

وأسباب تسمية السورة، وفضلها، ونزولها، ثم يقطع السورة إلى مقاطع حسب موضوعاتها، ويقسم الحديث عن كل مقطع إلى أقسام سبعة، وهي اللغويات، ثم أسباب النزول، ثم التفسير التحليلي ثم فقه الحياة أو الأحكام.

ويقول عن منهجه: " وسأحرص بقدر الإمكان على التفسير الموضوعي " [1].

وفيما يتعلق بمنهجه في مقاصد السور نجده يعرضها بذكر بيان ما اشتملت عليه السورة من الموضوعات كغيره من المفسرين. ولا نجد له عناية بتحقيق مقصد السورة ومحورها سوى ذكر أبرز موضوع تتحدث عنه.

فمثلاً في سورة الفتح يقول: " تحدثت عن المنافقين الذين ظهروا في المدينة، وعنيت بشؤون التشريع في الجهاد والعبادات والمعاملات " [2].

وهذا المنهج ليس منهجاً مبنياً على تحقيق المقصد من السورة، وإنما هو بيان أبرز الموضوعات في السورة.

٧- عبدالرحمن بن حسن حبنكة في معارج التفكر ودقائق التدبر.

نهج حبنكة في كتابه معارج التفكر منحىً جديداً حيث رتبه حسب ترتيب النزول. وقد سماه (معارج التفكر ودقائق التدبر، تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول، وفق منهج كتاب قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل)

وبالاطلاع على منهج مؤلفه نجده يعرض لكل سورة تحت محاور رئيسة هي:

- بحث حول نزولها.
- نص السورة وما فيها من قراءات
- ماجاء في السنة حول السورة
- موضوع السورة ودروسها

(١) ((التفسير المنير)) (١/ ٩).

(٢) المصدر السابق (٢٦/ ١٤٣)

- التدبر التحليلي للسورة، ويقسمه إلى دروس حسب مقاطع السورة وموضوعاتها. ويختم كل درس بنظرة إجمالية يضمنها بعض موضوعاته والدروس المستفادة منه.

وفيما يتعلق بمنهجه في تحديد موضوع السورة نجد غالباً ما يضمنه الموضوعات الرئيسة فيه. وقد يجملها في موضوع واحد. فمثلاً في كلامه عن سورة المزمل يعرض لما ركزت عليه السورة من توجيهات. ويختم كلامه بقوله: " فموضوع السورة يدول حول (أوامر ووصايا سلوكية للرسول ﷺ، وللمؤمنين مقرونة بالوعد، ومعالجة للكافرين بالوعيد مع تأكيد أن رسالة الإسلام رسالة تذكير لارسالة سوق بالإجبار " [(١)] .

٨- عبدالله شحاته في كتابه أهداف كل سورة.

يعتبر الدكتور عبدالله شحاته من أبرز الكتاب المتأخرين الذين عنوا في علم مقاصد السور، ولذلك ذكر في كتابه (التفسير بين الماضي والحاضر) أن الأساس في تسمية السور هو أهم شيء فيها، أو أغرب شيء تحدثت عنه، وأن السورة قد تطرق عدة موضوعات، وتختار واحداً منها أحياناً ليكون عنواناً لها، وضرب مثلاً لذلك سورة هود [(٢)].

أما منهجه في كتابه (أهداف كل سورة) فإنه يقدم لكل سورة بذكر أهداف السور، وهو يذكر مجمل ماتضمنت السورة، ولذلك سماه (أهداف كل سورة) ولم يسمه (هدف كل سورة). .

فمثلاَ: في سورة الحديد يقول: " أهداف سورة الحديد: وهي سورة تعالج التقوى والصدق والإيمان، وتحث على الصدقة والبذل والإخلاص في التضحية، وتحذر من غرور الدنيا وفتنتها) " [(٣)].

---

(١) ((معارج التفكر ودقائق التدبر)) (١/١٥٥).

(٢) ((التفسير بين الماضي والحاضر)) (ص٣٦).

(٣) ((أهداف كل سورة)) (٢/١٩٥).

٩- عمر خالد في كتابه (خواطر قرآنية نظرات في أهداف سور القرآن)

يعتبر عمرو خالد من الدعاة المتأخرين وليس من المتخصصين ولا المفسيرن، وقد كتب في مقاصد السور كتاب أسماه (خواطر قرآنية نظرات في أهداف سور القرآن) وفكرته فيه أنه يتحدث عن السورة بإجمال عن موضوعها التي تدور حوله، ويتميز بأنه يضع لمجموعة من السور المتتابعة تقسيماً موضوعياً فيجعلها تحت عنوان أو هدف واحد، ثم كل سورة لها هدف معين:

فنجده مثلاً يجمل سور الجزء التاسع والعشرين في الدعوة إلى الله، وسور الجزء الثلاثين في ختام المنهج الرباني.

وفي تحديده لهدف السورة نجده يرمز لها بعنوان مختصر فمثلاً:

سورة البقرة يرمز لها بعنوان (أنت مسؤول عن الأرض)

وسورة آل عمران يرمز لها بعنوان: (الثبات على المبدأ)

وسورة الأنبياء يرمز لها بعنوان (دور الأنبياء في تذكرة البشرية).

وسورة التكاثر يرمز لها بعنوان (التوازن بين المادة والروح) [١].

ونجده يُعرض عن بعض السور أو يجمع سورتين جميعاً، وخاصة قصار السور.

١٠- محمد فاروق الزين في بيان النظم في القرآن الكريم

كتب محمد فاروق في مقاصد السور في كتابه (بيان النظم في القرآن الكريم) ولم يتطرق إلا للربع الأخير من القرآن من سورة غافر إلى الناس.

و يحدد فيه منهجه فيقول:

" تنطلق محاولة هذا الكتاب لبيان النظم القرآني، وبالتالي المعاني القرآنية، وقد بدأ الكاتب بالربع الأخير من القرآن الكريم، ويتضح الغرض من الكتاب في ثلاثة مواضع:

---

(١) ((خواطر قرآنية)) (ص ٧).

١. بيان ارتباط السور القرآنية بعضها مع بعض.
٢. بيان موضوع كل سورة أو ما اصطلح على تسميته محور السورة الذي تدور حوله.
٣. بيان النظم في الآيات لكل سورة على حدة. "[١].

ومنهجه في تحديد الغرض أنه يجعل لكل سورة محوراً واحداً تدور عليه، ويتميز بأنه يربط المحور بأبرز الآيات الدالة عليه في السورة.

فمثلاً: في سورة غافر يقول: " محور السورة يدور حول الاستكبار الزائف أو الكبر في نفوس المصرين على الكفر ممن يظنون أنفسهم مكتفين ذاتياً بما عندهم من العلم ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ ﴾ [غافر : ٤] فيجادلون الحق بالباطل ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ ﴾ ، ومن صفات المصر على الكفر المستمسك بالباطل أن يكون –لشدة غروره – متكبراً منكراً للحساب ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [غافر: ٢٧]. . . "[٢] ، ويستطرد في الاستشهاد بالآيات الدالة على المحور.

١١-الدكتور عبد العزيز الخضيري في رسالته فواتح السور ومناسباتها

ضمن الدكتور عبدالعزيز الخضيري رسالته الدكتوراه والتي عنى فيها بذكر المناسبات بين كل سورة وما قبلها، ويذكر المؤلف في مقدمة كل سورة تعريفاً بها تحت مسمى (بين يدي السورة) يضمنه بياناً لمحورها، وقد تميزت هذه الرسالة بإبراز المحور الرئيس لكل سورة، ثم إبرازه في السورة بعرض مجمل لموضوعاتها. وقد استفاد ذلك من منهج سيد قطب في الظلال.

(١) ((بيان النظم في القرآن الكريم)) (ص١٥).
(٢) المصدر السابق (ص١٩).

المبحث السادس

طرق الكشف عن مقاصد السور

الكشف عن مقصد السورة والوصول إليه مبني على الاجتهاد ودقة الاستنباط، وإدراكه مما تختلف فيه العقول، وذلك أنه مرتبة بعد إدراك المعنى العام، ويتطلب فهمه صفاء للذهن وصحة في الذوق ومعرفة في كلام العرب.

قال ابن خلدون في منزلة إدراك الإعجاز في كلام الله تعالى: "وإنما يدرك بعض الشيء من الإعجاز من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي، وحصول ملكته، فيدرك من الإعجاز على قدر ذوقه، فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاماً في ذلك؛ لأنهم فرسان الكلام وجهابذته، والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحه. . . "[(١)] .

ويقول الفراهي: " اعلم أن تعيين عمود السورة هو إقليد لمعرفة نظامها. . . ولكنه أصعب المعارف، ويحتاج إلى شدة التأمل والتمحيص "[(٢)].

ومما يدل على أن مقصد السورة معنى دقيق خفي يحتاج إلى دقة فهم ونظر ثاقب، ما تميز به ابن عباس رضي الله عنه من دقة الفهم لمغزى سورة النصر حين علم أنه أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه.

قال ابن القيم: "وهذا من أدق الفهم وألطفه، ولا يدركه كل أحد، فإنه سبحانه لم يعلق الاستغفار بعمله بل علقه بما يحدثه هو سبحانه من نعمة فتحه على رسوله ودخول الناس في دينه، وهذا ليس بسبب للاستغفار، فعلم أن سبب الاستغفار غيره،

---

(١) ((مقدمة ابن خلدون)) (ص٥٥٣).

(٢) ((دلائل النظام)) (ص١٦).

وهو حضور الأجل الذي من تمام نعمة الله على عبده توفيقه للتوبة النصوح والاستغفار بين يديه ليلقى ربه طاهرا مطهرا من كل ذنب. . . والمقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص "[1].

وطريق الكشف عن مقصد السورة والوصول إليه واستنباطه يحتاج إلى أمور:

أولاً: الفهم الصحيح للمقصد وحده وضابطه.

أول ماينبغي معرفته للوصول لمقاصد السور هو الفهم الصحيح للمقصد وضابطه فإن ذلك يهدي للطريق الصحيح إليه، وذلك أننا نجد من يخلط بين الموضوع والغرض، وبينهما فرق ظاهر.

فالغرض هو مغزى الكلام وروحه يجري فيه بخفاء، فيحتاج إلى دقة فهم ونظر ثاقب. أما الموضوع فهو ظاهر في السورة بما اشتملت عليه، وإن كان لابد من تلازم واتفاق بينهما كما ذكرت في أول البحث.

ثانياً: تدبر كلام الله بإدامة النظر ودقة التأمل فيه.

من أعظم ما يستلزم كشف المقصد تدبر كلام الله ودقة النظر وتكرار البحث وإدامة النظر، ذلك لأن الباحث يبحث عن أمر خفي يجري في الكلام فيربط بين حلقاته.

قال الفراهي: " لكنه – يعني عمود السورة – أصعب المعارف، ويحتاج إلى شدة التأمل والتمحيص، وترداد النظر في مطالب السورة المتماثلة والمتجاورة، حتى يلوح كفلق الصبح، فتضيء به السورة كلها، ويتبين نظامها، وتأخذ كل آية محلها الخاص، ويتعين من التأويلات أرجحها. . "[2].

(١) ((إعلام الموقعين)) (١/٣٥١-٣٥٤).

(٢) ((دلائل النظام)) (ص١٦).

فتقرر بهذا أن أمر الوصول للمقصد وكشفه يحتاج إلى دقة فهم وشدة تأمل وطول بحث، ذلك أنه معنى خفي في السورة يجري فيها جريان الروح في الجسد، ولاشك أن ترداد النظر وتكرار البحث سبيل للوصول إليه.

ومما يؤكد أن تحديد موضوع السورة وربط آيات السورة به يحتاج إلى طول وقت ونظر ودراسة واعية متأنية، ويتطلب بحثاً عميقاً قد يمتد وقتاً طويلاً تجارب العلماء الذين نهجوا هذا المنهج.

فهذا البقاعي يقول عن نفسه في طول مكثه يبحث عن المناسبات بين الآيات: " فلا تظنن أيها الناظر لكتابي هذا أن المناسبات كانت كذلك قبل الكشف لقناعها، والرفع لستورها، فرب آية أقمت في تأملها شهوراً " (١).

ويبين صلاح الخالدي منهج سيد قطب في طول تأمله مع الآيات وربطها بغرض السورة فيقول: " كان يكد الذهن ويطيل التأمل في السورة، حتى يهتدي إلى موضوعها العام، ويقف على محورها الذي يشد جميع دروسها وجولاتها وحلقاتها وآياتها. . . فإذا لم يهتد إلى الربط بين آية أو آيات وبين موضوع السورة يطيل الوقفة التي قد تستمر سنوات " (٢).

ثالثاً: إخلاص النية في طلب فهم كلام الله تعالى، والدعاء الصادق.

لاشك أن إخلاص النية في طلب فهم كتاب الله تعالى، وإقبال القلب على هذا القرآن برغبة صادقة في العلم به والعمل بما فيه، وامتلاء القلب شوقاً ورغبة وتعظيماً ومحبة له.

ويأتي مع إخلاص النية وإقبال القلب صدق اللجوء إلى الله تعالى، وكثرة الدعاء بأن يفتح الله عليه، وأن يرزقه فهمه ويعلمه تأويله، ولهذا ظهرت بركة

(١) ((نظم الدرر)) (١٤/١.).

(٢) ((مدخل إلى ظلال القرآن)) (ص٢٤٦).

دعاء النبي ﷺ لابن عباس بقوله: ((اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)) [1].

قال ابن القيم: "الفائدة الحادية والستون حقيق بالمفتي أن يكثر الدعاء بالحديث الصحيح: ((اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)) [2]، وكان شيخنا كثير الدعاء بذلك، وكان إذا أشكلت عليه المسائل يقول يا معلم إبراهيم علمني، ويكثر الاستعانة بذلك اقتداء بمعاذ بن جبل رضي الله عنه، وكان بعض السلف يقول عند الإفتاء ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة ٢٣] . . . وكان بعضهم يقرأ الفاتحة وجربنا نحن ذلك فرأيناه من أقوى أسباب الإصابة، والمعول في ذلك كله على حسن النية وخلوص القصد وصدق التوجه) " [3].

رابعاً: معرفة مقدمات السورة من أحوال نزولها، وفضائها وخصائصها.

لابد لمن رام الوصول لمقصد السورة أن يبدأ بحثه في السورة ومقصدها بمعرفة ما يتعلق بالسورة من الظروف والأحوال التي نزلت فيها السورة من كونها مكية أو مدنية، وسبب نزولها، وفضائلها، وخصائصها، فإن ذلك مفتاح رئيس للوصول لغرضها.

فأما معرفة الظروف والأحوال التي نزلت فيها فهذا ظاهر المناسبة، فإن آيات القرآن تنزل حسب الأحداث والأحوال لغرض يناسبها ولسبب يقتضيها، فلاشك أن ذلك من أهم ما يعين على معرفة مقصد السورة.

---

(١) أخرجه البخاري ١/٦٦ برقم ١٤٣ وأحمد١/٢٦٦.

(٢) أخرجه مسلم ١/٥٣٤ برقم ٧٧٠ و النسائي ٨/٢٧٨ برقم٥٥١٩.

(٣) ((إعلام الموقعين)) (٤/ ٢٥٨).

قال ابن عاشور مؤكداً أهمية أسباب النزول بمعناها العام في معرفة المقصد ": ومنها - أي أسباب النزول - ما ينبه المفسر إلى إدراك خصوصيات بلاغية تتبع مقتضى المقامات، فإن من أسباب النزول ما يعين على تصوير مقام الكلام" [١].

كما أن معرفة كونها مكية أم مدنية يعين القارئ على معرفة الغرض، إذ أن الفرق ظاهر بين مقاصد السور المكية والمدنية، وكذلك الفرق بين السور المكية نفسها، وكذلك بين المدنية فيما بينها [٢].

وأما معرفة فضائلها وخصائصها، فذلك ظاهر، إذ أن تخصيصها بفضل معين كما في سورة الفاتحة بأنها أعظم سورة في القرآن ظاهر فلكونها متضمنة جميع مقاصده، وتخصيص سور بمشروعية قراءتها في وقت معين دال على مناسبة غرضها لهذا الوقت، مثلاً نرى سورتي الكافرون والإخلاص ورد تخصيص قراءتهما في ركعتي الفجر وركعتي الوتر، ولو تأملنا في حكمة ذلك لتبين لنا أن الغرض هو افتتاح اليوم واختتامه بالتوحيد، ومنه نعرف غرضهما ومقصدهما.

خامساً: معرفة مقاصد القرآن العامة، والانطلاق منها في تحديد مقصد كل سورة.

من أعظم ما يعين على معرفة مقاصد السور وتعيينها معرفة مقاصد القرآن والانطلاق منها في تحديد مقصد كل سورة، وذلك أن مقاصد السور لابد وأن تتفرع من المقاصد العامة للقرآن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ": فمن تدبر القرآن، وتدبر ما قبل الآية وما بعدها، وعرف مقصود القرآن، تبيّن له المراد، وعرف الهدى والرسالة، وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج، وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه، فهذا منشأ الغلط من الغالطين"[٣] .

(١) ((التحرير والتنوير)) (٤٧/١).
(٢) انظر ((منهجية البحث في التفسير الموضوعي)) (ص١٠٢).
(٣) ((مجموع الفتاوى)) (٩٤/١٥).

سادساً: النظر في اسم السورة وما ورد من أسمائها، وإمعان النظر في الرابط بينها.

من أعظم الطرق لاستكشاف الغرض، هو تدقيق النظر في اسم السورة، وما ورد من أسمائها عن السلف، فإن ذلك أعظم هاد إلى المقصد.

يقرر ذلك البقاعي فيقول: " وقد ظهر لي باستعمالي هذه القاعدة بعد وصولي إلى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها، لأن كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه عنوانه الدال إجمالاً على تفصيل مافيه " (١).

تنبيه مهم:

مما ينبغي التنبه له في هذه المسألة أن الباحث يجب أن يركز نظره على دلالة الآية أو القصة التي ورد اسم السورة مثلاً أو سميت بها، فهو الذي يوصل للغرض، إذ أن التسمية بشيء ورد في السورة يؤكد أهمية القصة التي سميت بها السور.

يقول البقاعي في ذلك: " إن من عرف المراد من اسم السورة عرف مقصودها "

ونجد في بعض السور أن الاسم صريح الدلالة على الغرض كما في سورة الإخلاص، فإن اسمها دال على غرضها صريحاً، إذ ليس في السورة مايشير إلى هذا اللفظ سوى ماتضمنته من غرض وهو تحقيق الإخلاص والتوحيد لله.

وفي سورة المعوذتين أيضاً دلالة صريحة على الغرض إذ أنهما نزلتا لغرض التعوذ والاعتصام بالله من الشرور. والله أعلم.

ولكن مع هذا فينبغي ألا يقف نظر الباحث على هذا الأمر أو أن يتكلف فيه، وإنما يكون معيناً له وهادياً إلى مبتغاه.

---

(١) ((نظم الدرر)) (١/١٢).

سابعاً: الاطلاع على الآثار الواردة عن السلف في بيان ما أنزلت فيه السور وما يكون منطلقاً لتحديد مقاصدها.

قد يرد عن السلف تحديد إشارة لمقصد السورة ببيان ما أنزلت فيه، وذلك منطلق في تحديد المقصد.

ومثال ذلك:

- ماورد عن ابن عباس في سورة الليل أنه قال: إني لأقول هذه السورة نزلت في السماحة والبخل ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾ [1]، وبالتأمل نجد أنها واردة في بيان أكمل صفات المؤمنين وهي السماحة والعطاء ولذلك نزلت في أبي بكر، وأسوأ صفات الكافرين وهو البخل والتكذيب، ولذلك نزلت في أمية بن خلف. وهو مارمز إليه ابن عباس رضي الله عنهما.

- وما ورد عن عمرو بن دينار في سورة التكاثر، كما أورده القرطبي قال: (وعن عمرو بن دينار: حلف أن هذه السورة نزلت في التجار) [2]، وبالتأمل نجد أنها واردة في شأن التكاثر بالأموال والأولاد ونسيان الآخرة، وهذا حال كثير من التجار، وهو مارمز إليه عمرو بن دينار رحمه الله.

- وما ورد عن محمد بن الفضل قال: (سورة الإخلاص، لأنه ليس فيها إلا التوحيد فقط) [3].

ثامناً: النظر في افتتاحية السورة وخاتمتها والتأمل في الرابط بينهما.

افتتاحيات السور لها خاصية في الدلالة على الغرض الذي يراد عرضه في سائر السورة، إذ أنها المنطلق للسورة. فعلى الباحث حين يريد الوصول للغرض أن يدقق النظر في افتتاحية السورة من جهة افتتاحها بالحروف المقطعة مثلاً، أو

---

(١) ((الدر المنثور)) (٦/٥٩١).

(٢) ((أحكام القرآن)) (٢٠/١٦٩).

(٣) ((أحكام القرآن)) (٤/١٠).

الحمد أو التسبيح أو غير ذلك. على ألا يكتفي الباحث بذلك بل لابد من متابعة النظر في سائر السورة، إذ أن الغرض ينطلق من افتتاحية السورة فيتتابع في أجزائها تتابعاً مرحلياً حتى يتم في خاتمتها.

يقول السيوطي في ذلك: " وقد قدمنا غير مرة أن سور القرآن تستفتح بما يشير إلى المقصود، ثم يستطرد منه إلى غيره بأدنى ملائمة. . . ثم يشار في آخر السورة إلى مثل ما افتتح به" (١).

ويتأكد مع ذلك ربط أول السورة بآخرها فإن أول الكلام وآخره هو المرتكز للغرض غالباً، وهذا متقرر في لغة العرب.

وقد أشار لذلك أبو حيان الأندلسي إشارة مجملة في قوله: " وقد تتبعت أوائل السور المطولة، فوجدتها يناسبها آخرها، بحيث لا يكاد ينخرم منها شيء. . وذلك من أبدع الفصاحة؛ حيث يتلاقى آخر الكلام المفرط في الطول بأوله، وهي عادة للعرب في كثير من نظمهم " (٢).

تاسعاً: النظرة الكلية للسورة، ومراعاة سياقها العام، والمناسبات والروابط فيها:

لابد لمعرفة المقصد من النظرة الشاملة للسورة، ومراعاة نظامها وسياقها العام الذي يكشف ترابطها والمعنى الجامع فيها، واستظهارها جميعاً بغرض معرفة مقصودها العام، فإن ذلك سبيل للمعرفة بإذن الله تعالى.

قال صاحب كتاب النبأ العظيم: "وملاك الأمر في ذلك أن ينظر إلى النظام العام الذي بنيت عليه السورة بمجموعها" (٣).

كما أن معرفة المناسبات بين القصص والموضوعات ووجوه الاتصال بينها،

---

(١) ((قطف الأزهار)) (١٠٨/٢).

(٢) ((البحر المحيط)) (٣٧٨/٢).

(٣) ((النبأ العظيم)) (١٥٨).

ومعرفة الاتصال بين المقطع والمقطع، وعقد الاتصال بينها من أعظم مايسوق إلى معرفة العمود الواصل بينها.

قال الفراهي: " لا يخفى أن كثيراً من القرآن ظاهر النظم، وإنما يخفى جهة الوصل في مواضع معدودة. . فهناك عقد واتصال، وهي معاطف الكلام، وهي أكبر ما يهم من يتلمس النظم، فلابد من تعيينها، والوقوف عليها، والتأمل التام فيها، فعند النظر في السورة لايهمنك –أولاً – إلا هذه المعاطف، فإذا اطمأننت بوصلها اطمأننت بنظم السورة " [1].

عاشراً: إمعان النظر في دلالات الكلمات والألفاظ وسر اختيارها، وما يتكرر في السورة من الألفاظ والأحرف.

مما يكشف للباحث الغرض الذي يجري في السورة ويلتحم بكل لفظة منه، إمعان النظر في مفردات ألفاظ الآية وأصول معناها اللغوي، ودلالتها على الغرض. فإن ذلك يدلك على معان دقيقة مقصودة في الآية، وأن اللفظة تحمل معاني متعددة بحسب الغرض الذي سيقت من أجله.

وهذا العلم سر بديع يطلعك على كمال حكمة القرآن وإعجازه وكمال انتظامه، وأن كل كلمة موضوعة في موضوعها المناسب من السورة وغرضها الذي سيقت من أجله.

يقول الفراهي مؤكداً ذلك: " ثم إذا صرف التوجه لاستخراج العمود والنظام، لزم إمعان النظر في دلالات الكلمات والسياق " [2].

ويقول مصطفى صادق الرافعي: " تدبر الألفاظ على حروفها وحركاتها وأصالتها ولحونها، ومناسبة بعضها لبعض في ذلك، والتغلغل في الوجوه التي

(١) ((دلائل النظام)) (ص٨٠).

(٢) المصدر السابق (ص٨١).

من أجلها اختير كل لفظ في موضعه. . ثم انظر في روابط الألفاظ والمعاني من الحروف والصيغ التي أقيمت عليها اللغة، ووجه اختيار الحرف أو الصيغة، ثم طريقة النسق والسرد في الجملة ووجه الحذف أو الإيجاز أو التكرار ونحوها، مما هو خاص بهذه الطريقة حسب ما توجهه المعاني، فإن كل ذلك في القرآن على أتمه. .) "[1].

ولو ضربنا مثلاً لذلك لتأكد المراد، ففي سورة الإخلاص مثلاً يرد لفظ (الصمد) الذي من معانيه صمود جميع المخلوقات إليه في جميع أحوالهم، وهذا مؤكد لغرض السورة فإن السورة في تحقيق التوحيد والإخلاص لله تعالى.

وفي سورة الضحى، يفتتح الله تعالى القسم بالضحى، للدلالة على الانكشاف وزوال الظلمة وانبعاث السرور في النفس، وهو مناسب لغرض السورة ونزولها في تأنيس النبي ﷺ وإزالة همه بعد أن سخر منه المشركون وقالوا قلاه ربه. فكان اللفظ دالاً على الغرض من السورة.

ومما له دلالة على المقصد مراعاة الألفاظ والحروف التي تتكرر في السورة.

كثيراً ما تكون الألفاظ المكررة في السورة دالة على الغرض ومشيرة إليه. يقول البقاعي: " وسورة مريم مقصودها شمول الرحمة ففتحت بذكر الرحمة وختمت بأن كل من كان على نهج الخضوع لله يجعل له وداً، ثم كرر الوصف بالرحمن فيها تكريراً يلائم مقصودها "[2].

وهذا كله يؤكد لنا أهمية دراسة اللغة والعربية وقواعدها، والبلاغة وأساليبها في ذوق الكلام والقدرة على التعمق في فهم دلالات الألفاظ ومقاصدها.

---

(١) ((إعجاز القرآن)) (ص٢٥٩).

(٢) ((نظم الدرر)) (١٥٦/١٢).

الحادي عشر: المعايشة الروحية الحية للسورة

من أعظم ما يهدي للغرض ويوصل للمراد هو المعايشة الروحية الحية للسورة، بتلاوتها بتدبر واستحضار وحضور قلب، مع تصور لمشاهدها وكأنها صورة حية أمامه. وهذا يبعث على عمق التفكير فيها والاستغراق التام في معانيها ودلالاتها وهداياتها وذلك باعث على معرفة مغزاها والمقصد، إذ المقصد معنى خفي لايدرك إلا بدقة التأمل وقوة الاستحضار.

قال سيد قطب: " إن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يقبل عليه بهذه الروح، روح المعرفة المنشئة للعمل "[١].

وهذا الذي ميز سيد قطب في كتابه (في ظلال القرآن) فإنه يعيش مع السوره كأنها مشاهد حية، فيستغرق في مشاهدتها بقلبه الحاضر ويصل إلى أعماق دلالاتها وهداياتها ومقاصدها.

تأمل كلامه على سورة فاطر حين يصور السورة بتصوير بديع يدل على معايشة عميقة للسورة وآياتها: " هذه السورة المكّية نسق خاص في موضوعها وفي سياقها. أقرب ما تكون إلى نسق سورة الرعد. فهي تمضي في إيقاعات تتوالى على القلب البشري من بدئها إلى نهايتها. إيقاعات موحية مؤثرة تهزه هزاً، وتوقظه من غفلته ليتأمل عظمة هذا الوجود، وروعة هذا الكون؛ وليتدبر آيات الله المبثوثة في تضاعيفه، المتناثرة في صفحاته؛ وليتذكر آلاء الله، ويشعر برحمته ورعايته. . ذلك كله في أسلوب وفي إيقاع لا يتماسك له قلب يحس ويدرك، ويتأثر تأثر الأحياء. . . . "[٢].

الثاني عشر: المدراسة والمباحثة بين شخصين أو أكثر في بيت من بيوت الله تعالى.

---

(١) ((معالم في الطريق)) (ص١٨).

(٢) ((في ظلال القرآن)) (١٢٨/٦).

من أعظم الطرق لكشف مقصد السورة ومغزاها؛ المدارسة والتباحث بين اثنين أو أكثر في بيت من بيوت الله تعالى مع الاستعانة بعد ذلك بالتفاسير، وذلك أمر مجرب، وله خاصية في فهم كتاب الله تعالى، ويؤكد ذلك قوله تعالى ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[ص٩٢] فإن التدبر راجع إلى إعمال الذهن وإعادة النظر في الآيات وهذا يتحقق بجلاء في المدارسة. وقد شهد لذلك ماجاء في مسند الإمام أحمد بسند صحيح: عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ -ﷺ- قَالَ " **مَا مِنْ قَوْمٍ يَجْتَمِعُونَ فِى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَقْرَءُونَ وَيَتَعَلَّمُونَ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلاَئِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَسْلُكُ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ بِهِ الْعِلْمَ إِلاَّ سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ وَمَنْ يُبْطِئْ بِهِ عَمَلُهُ لاَ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ** " (١).

وإنما قلنا في بيوت الله لأنها أدعى لهذا التدبر لفضل المكان وصفائه وما يصاحب ذلك مما وعد به النبي ﷺ من حضور الملائكة ونزول الرحمة وذكر الله تعالى لأهل هذا المجلس، ومن هنا فإنه ينبغي لنا أن نحيي في بيوت الله هذه المجالس التي تحيا بها القلوب بكتاب الله في بيوت الله.

الثالث عشر: الاستعانة ببعض الكتب والتفاسير التي تعتني بمقاصد السور

مما يعين على معرفة المقصد الاستعانة ببعض الكتب التي عنيت بمقاصد السور، وقد ذكرت ماأمكنني معرفته مما يعنى بهذا بالعلم في المبحث السابق.

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤٠٦/٢رقم ٩٢٦٣. وأصله في مسلم برقم ٢٦٩٩.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

ففي نهاية هذا البحث يحسن أن نبرز أهم ما فيه من نتائج، وهي كما يلي:

أولاً: أن علم مقاصد السور علم عظيم متعلق بفهم كتاب الله مباشرة، وذلك أنه راجع إلى تحقيق المقصد من إنزال القرآن الكريم كله، وهو التدبر والهداية، وهو يمثل الروح في الكلام، ويبعث على رسوخ الإيمان، وزيادة نور القلب، وقرار العين بما يتضح من روائع كتاب الله تعالى، ويحصل معه من اللذة والمتعة والسرور ما لا يحصل في غيره، ذلك أنه علم يبحث في الحكم والمقاصد الدقيقة التي تمثل روح القرآن وأسراره العظيمة.

ثانياً: أن منهج دراسة تفسير كتاب الله اعتماداً على هذا العلم منهجٍ مأمون صحيح معتبر عند العلماء، وهو المنهج الأسلم الذي يجعل كلام الله مؤتلفاً منتظماً على نحو كمال نظمه وإحكامه، وتكون السورة معه كالبناء المرصوص وكالعقد المتناسق.

ثالثاً: أظهرت هذه الدراسة أهمية تفسير كتاب الله تعالى على نحو هذا المنهج العظيم، وقدمت رؤية صحيحة - بإذن الله - لتفسير كتاب الله تعالى في ضوء مقاصد السور.

رابعاً: مازالت الحاجة ماسة إلى دراسة هذا العلم وتحقيقه وإبرازه ورسم منهج عملي صحيح لتفسير كتاب الله تعالى باعتبار مقاصد السور، ويعتبر هذا البحث - بحمد الله - مساهمة جادة في ذلك.

هذا وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً صائباً، وأن يحقق فيه الأمل بالنفع والبركة. وأن يجعلنا منِ أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته، وأن يرزقنا به إيماناً صادقاً، وعلماً راسخاً، وأن يجعله نوراً لنا في حياتنا وبعد مماتنا. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

الكتاب

- الإتقان في علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطي ، دار التراث ، القاهرة .
- الأساس في التفسير ، للأستاذ سعيد حوى ، ط دار السلام القاهرة ، ط٥ ١٤١٩هـ .
- أسماء القرآن الكريم وفضائلها ، للدكتورة منيرة الدوسري ، ط. دار ابن الجوزي .
- إعلام الموقعين ، لابن القيم الجوزية ، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد ، ط دار الجيل ، بيروت ١٩٧٣م
- أهداف كل سورة ومقاصدها ، د عبد الله شحاته ، ط الهيئة المصرية العامة للكتب .
- البحر المحيط، لمحمد يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ، تحقيق عرفات العشا حسونة ، وزهير جعيد ، ط دار الفكر ، ١٩٩٢.
- البرهان في علوم القرآن ، لبدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط دار التراث ، القاهرة .
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، لمد الدين محمد الفيروز أبادي ، تحقيق محمد علي النجار ، ط المكتبة العلمية بيروت .
- بيان النظم في القرآن الكريم ، لمحمد فاروق الزين ، توزيع دار الفكر ، دمشق ط١ ٢٠٠٣م.
- التحرير والتنوير ، لمحمد الطاهر بن عاشور ، ط الدار التونسية ، ١٩٨٤م
- تفسير ابن كثير ، لإسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ، ط دار طيبة ، الأولى ١٤١٨هـ ، الرياض
- التفسير القيم ، لابن القيم الجوزية ، جمع محمد أويس الندوي ، ١٩٤٩، مطبعة أنصار السنة ، مصر
- تفسير المراغي ، لأحمد مصطفى المراغي ، تحقيق باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، الأولى ، ١٩٩٨م.
- التفسير بين الماضي والحاضر ، لعبدالله شحاته ، دار بو سلامة ، تونس
- تفسير سورة إبراهيم ، محمد غازي جميل ، مطبعة المدني ، جدة .
- جامع البيان في تأويل آي القرآن ، لمحمد بن جرير الطبري ، تحقيق أحمد شاكر ، ط مؤسسة الرسالة ١٤٢٠هـ

- الجامع لأحكام القرآن ، لمحمد بن أحمد القرطبي ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٣ .
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لأحمد بن عبدالحليم بن تيمية ، تحقيق علي حسن ناصر ، وعبدالعزيز إبراهيم العسكر وحمدان محمد ، ط دار العاصمة ، الرياض، ١٤١٤هـ
- جواهر القرآن ، لأبي حامد محمد الغزالي ، تحقيق محمد رشيد رضا ، ط. دار إحيا العلوم بيروت
- خواطر قرآنية نظرات في أهداف سور القرآن ، لعمر خالد ، الدار العربية للعلوم ، ١٤٢٥هـ الأولى .
- الدر المنثور ، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١١هـ
- دلائل النظام ، المطبعة الحميدية الهند (١٣٨٨هـ) .
- زاد المسير في علم التفسيبر ، لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي ، دار المكتب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٧م.
- سنن أبي داوود ، تحقيق عزت الدعاس ط دار الحديث ، بيروت ١٩٧٤م.
- سنن الترمذي ، تحقيق أحمد شاكر ، ط دار الكتب العلمية .
- سنن الدارمي ، للإمام عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي ، تحقيق سيد إبراهيم ، وعلي محمد علي ، ط دار الحديث القاهرة ٢٠٠٠م
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، لابن القيم الجوزية ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٨٧ .
- صحيح البخاري ، تحقيق مصطفى البغا ، طبعة دار ابن كثير ، بيروت ١٤٠٧هـ

فهرس الموضوعات